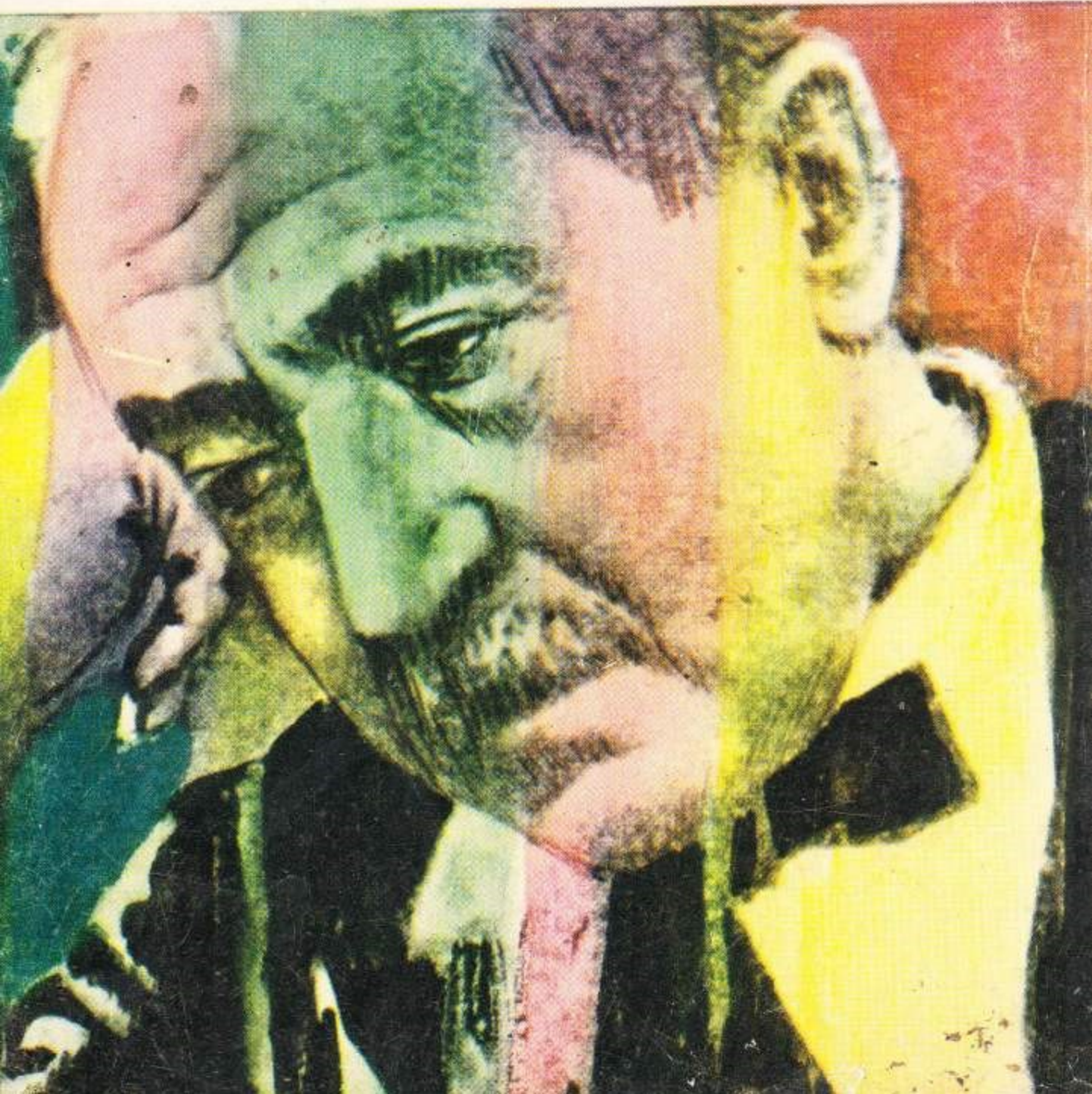


عبد المنعم شميس

شخصيات

في حياة شوقي



اقْرَأْ

تصدر أول كل شهر

[٤٥٠] - أكتوبر - ١٩٧٩

رئيس التحرير أنيس منصور

عبد المنعم شمس

شخصيات في حياة شوقي



دار المعارف

نصيم الفلاف : أحمد أبو عمر

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

شوقي شاعراً

(١٢٨٥ - ١٣٥١ هـ / ١٨٦٨ - ١٩٣٢ م)

لم يختلف الناس منذ نشوء الشعر العربي حتى اليوم ؛ كما اختلفوا حول المتنبي وشوقي ، وسيظل هذا الخلاف قائماً ، لأن هذين الشاعرين يمثلان العبقرية الحقيقية في شعر العرب ، ويعترف بذلك أحباهما وحسادهما على السواء .
وقد اتهم نقاد كثيرون المتنبي بأنه سرق من شعر غيره ، ثم جاء من بعدهم نقاد اتهموا (شوقي) بأنه سرق من شعر المتنبي ، ولكن هؤلاء النقاد جميعاً لم ينظروا إلى معنى العبقرية في الشعر ، فكانوا يشرحون الأبيات تشريحاً قاتلاً للوصول إلى معنى أولفظ يجرحون به سمات العبقرية .

ومنذ قديم اخترع نقاد الأدب العربي باباً اسمه (السرقات الشعرية) ؛ ضموه إلى أبوابهم الثابتة في النقد التي اهتمت بأشعر بيت قالته العرب ، وأحسن بيت قالته العرب ، إلى غير ذلك من أشياء لا قيمة لها في موازين النقد بمفهومه الجمالي الفني .

وليس من هدفى أن أحدثك عن شيء من هذا . لأننى لست ناقداً . ولكننى أنظر إلى شوقى من جانب آخر . هو التعريف ببعض ملاحه عن طريق الشخصيات التى أثرت فى حياته الشعرية . وكان له ارتباط بها . وقد بحثت عن هذه الشخصيات . وانصرف اهتمامى إلى بعضها مما أثر عن قريب أو بعيد فى حياة أمير الشعراء .

ولكن (شوقى) كان يعرف شخصيات لاحصر لها . ومنهم مشهورون . ومنهم مغمورون . وكانت حياته العامة والخاصة تحفل بالناس من أهل السياسة والصحافة والشعراء والفنانين والأدباء وغيرهم . كما كانت له صداقات وعداوات . وقد روى عنه معاصروه الروايات . وكان مؤثراً فى هؤلاء الناس . ومتأثراً بهم . وقد تسألنى : لماذا لم أجعل (محمود سامى البارودى) واحداً من المؤثرين فى شوقى ؟ وأقول لك : إننى لم أحس بأثر للبارودى فى شاعرية شوقى ، وليس هذا القول من النقد الأدبى . ولكنه إحساس لاعلاقة له بالنقد ، وقد عرف شوقى الشاعر الفارس (محمود سامى البارودى) . وكان جاره فى حلوان ، كما أن الشيخ المرصنى كان أستاذاً لهما . ولكننى بعد أن طالعت شعر البارودى وشعر شوقى لم أشعر بوجود علاقة وجدانية بين الشاعرين ، ولم أجد بينهما صلة من ناحية التركيب الفنى للشعر مع أنها أخذتا من نبع واحد ، كما كانا كلاهما من رجال القصر ، فقد كان البارودى ياوراً لإسماعيل ، كما ولد شوقى بباب إسماعيل .

ويبدو لى أن صلة شوقى بالبارودى كانت صلة عابرة . أو علاقة احترام من شاعر شاب لفارس من فرسان الشعر العربى الحديث . كما أن البارودى كان مغضوباً عليه من القصر بعد عودته من المنفى . على حين كان شوقى شاعر الأمير . ولم يكن فى الإمكان وجود انسجام عاطفى بينهما ، حتى لو كان بينهما احترام . وقد اضطر شوقى إلى إهانة (عراقى) بعد عودته من المنفى بقصيدة غريبة لاتوافق هى ومزاج

شوق وأخلاقه إرضاء لأميره . فكيف تنسجم عواطفه وكبير من رجال الثورة
العربية مثل البارودى ؟

ولذلك لم أجعل البارودى من الشخصيات التى بحثت عنها فى حياة أمير
الشعراء .

ومن الواضح أننى أتحدث عن الشخصيات المعاصرة لشوق . وهم الذين
عرفهم وعرفوه ، ولأأتحدث عن الشعراء القدماء أو الأدباء القدامى الذين أثروا فى
شوق ، وكان أولهم المتنبى . فقد صاحب شوق ديوان المتنبى معه حين سافر إلى
فرنسا . ولم يكن معه ديوان شعر غيره . كما روى الأمير شكيب أرسلان .
هذا ما أردت أن أحدثك به فى البداية .

أما تاريخ نشأة شوق فإنه يرويه لك بنفسه ، ويقول لك :

« سمعت أبى رحمه الله يرد أصلنا إلى الأكراد فالعرب ويقول : إن والده قدم
هذه الديار يافعاً يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إلى والى مصر (محمد على
باشا) ، وكان جدى وأنا حاملُ اسمه ولقبه يحسن كتابة العربية والتركية خطأً
وإنشاءً ، فأدخله والى فى معيته ، ثم تداولت الأيام وتعاقب الولاة الفخام وهو
يتقلد المراتب العالية ، ويتقلب فى المناصب السامية إلى أن أقامه سعيد باشا أميناً
للجارك المصرية . فكانت وفاته فى هذا العمل عن ثروة راضية بددها أبى فى سكرة
الشباب ، ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم ، وعشت فى ظله وأنا واحده أسمع بما
كان من سعة رزقه ، ولأرأى فى ضيق حتى أندب تلك السعة فكأنه رأى لى كما
رأى لنفسه من قبل ألا أقتات من فضلات الموتى ! »

ثم ذكر طرفاً من سيرة جده لوالدته^(١) ، إلى أن قال عن نفسه :

(١) كانت جدته لوالدته يونانية من بلاد المورة . سباهها إبراهيم باشا فى الحرب ، ثم أعتقها
وزوجها (محمد بك حلیم) أجد رجاله الأتراك ، وهو جد شوق لوالدته .

أنا إذن عرفى - تركى - يونانى - جركسى - بجدنى لأنى : أصول أربعة فى فرع
مجتمعة تكفله لها مصر كما كفلت أبويه من قبل إلى أن يقول :

« أم ولادنى فكانت تبصر القاهرة وأنا أحبو اليوم إلى الثلاثين : حدثنى سيد
ندماء هذا العصر المرحوم الشيخ (على الليثى) قال : لقيت أباك وأنت حمل لم
يوضع بعد - فقصر على حلما رآه فى نومه - فقلت له وأنا أمازحه : « ليولدن لك
ولد ينحرق كما تقول العامة خرقاً فى الإسلام ! » »

ثم اتفق أنى عدت الشيخ فى مرض الموت ، وكانت فى يده نسخة من جريدة
الأهرام فابتدر خطاى يقول : هذا تأويل رؤيا أبىك باشوقى - فوالله ما قالها قبل فى
الإسلام أحد : قلت : وما تلك يامولاي ؟ قال : قصيدتك فى وصف « البال »
التي تقول فى مطلعها :

حف كأسها - الحب فهى فضة ذهب

وهاى ذى فى يدى أقرؤها ! فاستعذت بالله وقلت : الحمد لله الذى جعل
هذه هى « الخرق » ولم يُضَيَّرْ بالإسلام فتيلاً .

أخذتنى بجدنى لأنى من المهد ، وكانت منعمة موسرة ، فكفلتنى لوالدى
وكانت تحنو على فوق حنوها ، وترى لى مخايل فى البر مرجوة .

حدثنى أنها دخلت لى على الخديو إسماعيل وأنا فى الثالثة من عمرى ، وكان
بصرى لا يتزل عن السماء من اختلال أعصابه ، فطلب الخديو بكرة من الذهب ،
ثم نثرها على الساطع عند قدمى ، فوقع على الذهب أشغل يجمعه واللعب به ،
فقال لجلتى : إصنعى معه مثل هذا ، فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض !
قالت : هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك يامولاي ! قال : جيئى إلى به متى
شئت ، إنى آخر من ينثر الذهب فى مصر ، ولا يزال هذا الاختلال العصبي فى
الإبصار يعاودنى وكان المرحوم الشيخ على الليثى كلما التقت عينه وعينى ينشد هذا

المصراع للمعنى :

(محاجر مسك ركبت فوق زئبق)

ثم عرض لنشأته الدراسية فذكر أنه دخل مكتب الشيخ صالح في الرابعة من عمره ، وأخيراً التحق بمدرسة الحقوق فوجد ممانعة من ناظرها بسبب صغره ، ومكث بها سنتين ، ثم دخل قسم الترجمة وتخرج منه بعد سنتين .

قال : « وبينما أنا أتردد على المغفور له (على باشا مبارك) في شأن ورد عليه مرسوم من المعية بطلبي إليها . فكان سروره بذلك أضعاف سروري بالنعمة المفاجئة . فذهبت إلى السراي وهنالك استؤذن لي على المرحوم الحديو توفيق باشا ، فلما مثلت بين يديه ولم أكن رأيت من قبل ، ولكن مدحته مراراً وأنا في المدرسة خاطبني بهذا اللفظ الشريف :

« قرأت يا شوق في الجريدة الرسمية أنك أعطيت الشهادة النهائية ، وكنت أنتظر ذلك لألحقك بمعيتي ، لكن ليس بها الآن محل خال ، فهل لك في الانتظار ريثما يهين الله لك الخير ؟ » . فاستلمت أذبال العزيز وقبلتها ثم قلت : حسبي يا مولاي أنك قد ذكرتني من تلقاء نفسك الشريفة ، وأى خير يهين الله لعبدك أفضل من هذا ؟ فأطرق هنيهة وقال : قد سمعت أن أباك عطل من الخدمة فأبلغه أنني ربما أدخلته في عمل قبلك ، ثم تهلل وأذن لي في الانصراف .

لبثت في المعية بضعة أشهر أنتظر فرجاً يأتي به الله ، وكان المرحوم (على باشا مبارك) لم يقطع عني الراتب إلى أن كان يوم كثر غيمه وثناقل مطره ، فخرجت قبيل الأصيل في حاجة لي على حمار أبيض كان لوالدي ، وبينما أنا عائداً إلى منزلي اجتاز ميدان عابدين بصرت بالعزيز في بهو السراي يشرف منه ، فترلت عن الدابة أمشي كرامة للمليك المطلق ، وأمرت الخادم أن يتعد بها وأن يلاقيني خلف القصر ، ثم مشيت على الأقدام حتى إذا انتهت من الميدان اعترضني رسول من

الأمير يدعوني إليه . فوافيت حضرته وأنا لأعرف السبب . وكان معه ساعته
المرحوم (عبد الرحمن باشا رشدي) فتحلى الخليم بصورة الغضب وقال : أليس لي
أن أطل من بيتي حتى تزنت عن حيزك وألجأتني إلى الاثناء ؟ قلت : عفواً
يامولاي ! هكذا أدبنا الأوائل حيث يقول شاعرهم :

وإذا المضي بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام
فتبسم ضاحكاً ثم قال : إنكم معشر الشعراء تتفاءلون بالغيوم . وهذا اليوم من
أيامكم . فاسمع للبasha فإن عنده لك فالاً . فالتفت البasha عندئذ إلي وقال : الآن
أمرني أفندينا أن أبلغك تعيين أليك مفتشاً في الخاصة الخديوية . وأما أنت فتعين
بعد شهر . ثم مد العزيز إلى يده فقبلتها واجماً : قد غلب على السرور حتى أنساني
الشعر وكان ذلك وقته .

ثم عرض شوقي لأول عهده في وظيفته بالمعية السنية ، وكيف أراد له الخديو
توفيق أن يدرس في أوروبا الآداب الفرنسية . والحقوق وكان ينقد ستة عشر جنيهاً
نصفها من الخاصة ونصفها من المعية ، وأعطاه يوم سفره مائة جنيه بعث بنصفها
إلى مدير الإرسالية ليبسئ له جميع ما يحتاج إليه ، ووصف ركوبه البحر لأول مرة
إلى مارسيليا على أن يقضى عامين في مدينة « مونايليه » وعامين في « باريس » .

ولما انقضت السنة الأولى التمس من الخديو توفيق أن يأذن له في الحضور إلى
مصر ، فأبى عليه أمنيته وأوصاه أن يبقى أربع سنوات كاملة في أوروبا ، وأرسل إليه
خمسين جنيهاً لينفقها في رحلة يختارها إلى أي بلد سوى مصر ، فتقبل دعوة رفاقه
الفرنسيين إلى مدنهم المتفرقة في الجنوب وقضى فيها شهرين ، ووصف ما رأى في
هذه الأقاليم الفرنسية من كرم ضيافة ، إلى أن يقول وصفاً للفلاح الفرنسي :
« وعرفت الفلاح الفرنسي في داره ، وكنت ألقاه في مزرعته وأماشيه في
الأسواق ، فيخيل إلي أنه قد خلف العرب على قرى الضيف وإكرام الجار ، وكان

أعجب ما رأيت مدينة « كركسون » : وجدتها قسمين . وألفت القوم عليها صنفين : فمنهم الباقون إلى اليوم كما كان آباؤهم عليه في القرون الوسطى ، بناؤهم ذلك البناء . ولباسهم ذلك اللباس . وعاداتهم وأخلاقهم تلك العادات والأخلاق » .

وبعد انتهائه من الستة الثانية سافر في صحبة الطلاب المصريين ومدير الإرسالية إلى إنجلترا على نفقة الخديو توفيق ومكث في إنجلترا شهراً . ولم يلبث هو وإخوانه أن سموها . وفي السنة الثالثة أصيب بمرض شديد كان فيه بين الحياة والموت . وأشار عليه الأطباء أن يقضى أياماً تحت سماء أفريقية . فوقع اختياره على الجزائر . وكان دليله إليها أحد القضاة الفرنسيين الموظفين بها ، إلى أن يقول :

« أما جو الجزائر فلا يعدله بين الأجواء في صحوه وطيب نسمة مع توقد شمسه إلا جنوب فرنسا . ولم أتأثر فيها كتأثرى من رؤية المصريين في القهاوى البلدية إذ أكثر أصحابها وغلبانها منهم . إلى أن قال : ولا عيب في الجزائر سوى أنها قد مسخت مسخاً . فقد عهدت مساح الأحذية فيها يستكشف من النطق بالعربية ! وإذا خاطبته بها لم يجيبك إلا بالفرنسية ! » .

وبعد أن أقام شوقي في الجزائر أربعين يوماً عاد إلى باريس وحصل على الشهادة النهائية . ورأى الخديو عباس أن يبقى ستة أشهر أخرى ، وعاد إلى مصر بعد ذلك ، وفي سنة ١٨٩٤ م انتدب لينوب عن مصر في مؤتمر المستشرقين الذي عقد في جنيف بسويسرا ، فأقام بها شهراً ثم رحل إلى بلجيكا وزار المعرض الذي أقيم في مدينة « أنفرس » ثم أصيب بمرض في عينيه ، فسافر إلى الآستانة ومكث بها أربعين يوماً .

ويروى كيف سمى ديوانه « الشوقيات » : فيذكر صلته وهو يطلب العلم في باريس بالأمر شكيب أرسلان وقد تمنى عليه أن يرى مجموعة شعره وأن يسميها

، تشويقاً ، إلى أن يقول :

«كنت وفاة ولدي من نحو ثلاث سنوات . فكان لي عجباً أن وجدت بين أوراقه شيئاً كثيراً لي من مشئت منظومي ومثنوي مانشر منها وما لم ينشر . وقد كتب بعضه بخبر وبعضه الآخر بالخصاص : وكلُّ بخط يد المرحوم وقد لقه في ورقة كتب عليها هذه العبارة : « هذا ماتيسر لي جمعه من أقوال ولدي أحمد وهو يظن العلم في أوربا . فكنت كأني أراه وأني أمره أن يجمعه ثم ينشره للناس لأنه لا ينجد بعدئذ من يعنى بشئونه . وربما لم يوجد بعده من يعنى بالشعر والآداب » . فبينما أنا ذات يوم تعب بهذه الأوراق ، حيران لوصية الوالد كيف أجريها زارني صديقي (مصطفي بك رفعت) . فحدثته حديثي . فسألني أن أعيره الأوراق أياماً . ثم يعيدها إلي ففعلت . ثم لم يمض شهر حتى بعث بها إلي وإذا هي قد نسخت بقلم سليم يؤيده ذوق صحيح بحيث لم يبق إلا أن تدفع إلى الطابع . فأخذتها وبودي لو وفيت صديقي المشار إليه حقه من شكر الصنع وأنا أقول في نفسي : لئن صدق أبي في الأولى لقد ظلم في الثانية فإن الخير لا يزال في الناس » . وكان شوقي قد بلغ الثلاثين من عمره عندما كتب تاريخ نشأته .

ثم عاد شوقي من مؤتمر المستشرقين الذي ألقى فيه قصيدته الشهيرة التي سماها (كبار الحوادث في وادي النيل) . ويقول في مطلعها :

هَمَّتْ الفلك واحتواها الماء وحداها بمن ثقل الرجاء

وهي رواية من الروايات الخالدة لتاريخ مصر منذ الفراعنة إلى عهد أبناء (محمد علي) .

وعينه الخديو عباس حلمي شاعره الخاص ، ورئيساً للقسم الإفرنجي بقصر عابدين ، وكان له من التفوذ والدالة ما استرعى إليه أنظار ذوى الحاجات ، ولا سيما طلاب الرتب والأوسمة ، فكان لا يرد طلباً ، ولا يجيب في سؤال ، فأفاد بذلك ثروة

حسنة . وكان قد تزوج وهو قتي في منتصف العقد الثالث . فحملت إليه زوجته ثروة ضخمة عن أبيها ، فأصبح من كبار الموسرين .

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى خلعت بريطانيا الحديو عباس حلمي ، وعينت السلطان (حسين كامل) سلطاناً على مصر ، وأبعدت شاعر الأمير عن مصر ، فأقام بالأندلس ، واتخذ برشلونة له سكناً .

يقول ولده (حسين شوقي) الذي صحبه مع أخيه علي : في منفاه إلى الأندلس ، وهو يصف هذه الفترة من حياة شوقي :

وعندما أعلنت الحرب الكبرى كنا مع والدي في تركيا ، فبرحناها على الفور عائدين إلى مصر إذ إن الإشاعات وقتئذ في الآستانة كانت تدل على أن تركيا سوف تدخل في الملحمة . . ولكن الحال كان قد تبدل في مصر ، وكذلك نظام الحكم ، فصار يخشى لقاء والدي أصدقاؤه الذين كانوا بالأمس - في أيام بأسه - لا يتركون له ساعة للراحة من كثرة طلباتهم وحاجاتهم حتى اضطر في أواخر أيام حكم سمو الحديو السابق إلى أن يفتح لنفسه غير الباب العمومي باباً صغيراً متوارياً في الحديقة ليقر منه ! وقد ذكر لنا أن صديقاً حميماً له شهده - بعد عودته من الآستانة - سائراً في الطريق ، فانتقل هذا الصديق إلى الرصيف المقابل ، حتى لا يهتم بمصافحته أحد رجال النظام القديم ، لذلك كم قابل والدي بارتياح حكم السلطة العسكرية في ذلك الوقت حينما كلفته مغادرة مصر لينجو من الدساتس ، ولا يتألم بمثل هذه المشاهد ، وهو الشاعر الشديد التأثر والإحساس . .

وعاد شوقي إلى مصر في أواخر سنة ١٩١٩ ، وقد تغير سكان قصر عابدين ، فابتعد عنه ، وانصرف إلى العمل المنتج العظيم ، ولم تفتر همة على كبر السن ، وإيدان الشمس بالغروب .

وفي سنة ١٩٢٧ عُقد مهرجان لتكريمه في دار الأوبرا ، فجاءت وفود الأدب

من جميع الأقطار العربية . وبابته بإمارة الشعر .

وعاش سنواته الأخيرة عيشة هادئة خصبة . يتمتع بنجاح عريض . ومال وافر وشهرة طائفة . حتى توفاه الله^{١١} في اليوم الثالث عشر من أكتوبر سنة ١٩٣٢ . استقبل شوقي يوم الخميس ١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٢ كما كان يستقبل أمثاله من الأيام . وما درى أن شمس هذا النهار لن تطلع عليه مرة أخرى إلا وهو في جوار ربه . وقد رآه أصدقاؤه كما كانوا يرونه في أيامه السالفة نشيطاً حلو البادرة وإن كانت السنون والأحداث قد أعيته بأعبائها فبدا شاحباً كثير التحوط والتخوف . وقد تناول غذاءه . واستراح متمدداً على كرسيه إلى وقت الأصيل ، فأقلته سيارته للتنزه على سسته وبرفقته وكيل أعماله وكاتب شعره الذي يلازمه في الستين الأخيرتين في غدواته وروحاته . وقد طاب له ارتياد الأماكن الخلوية . فإزالت السيارة تسير به إلى أن وصلت طريق السويس في صحراء مصر الجديدة . فرأى أن يتبرجل مستشقاً للهواء الطلق .

وبعد أن قضى أربه من التزهة عاد قاصداً منزله (إسماعيل شرين بك) كدأبه كل أمسية : إذ يسمر مع نخبة من كرام القوم في مجلس أنيق . وأكثر من كان يناقشه ومحاورة هناك . العالم المهذب (قواد سليم بك والسيد المفضل إسماعيل شرين بك) ، لكن مجلس السمر لم يكن منعقداً في تلك الليلة ، فعاد « شوقي » راغباً في تناول العشاء . وهو منشغ بالصدر . منبسط النفس .

تعشى في مطعم (ملستينو) على ماجرت عليه عادته أيضاً ، ثم رغب في أن يتم بقية البرنامج الليلي الذي قلما يحيد عنه ليلة واحدة .

وبقية البرنامج الذي أخذ نفسه به زيارة دار « الجهاد » فلم ينقطع عنها ليلة واحدة مادام مقيماً في القاهرة ؛ بل هو قد يكررها في الليلة الواحدة ، وهو لا يفتأ .

(١) جريدة الجهاد القاهرية ١٤ من أكتوبر ١٩٣٢ .

يُجد راحة نفسه ساعة يجلس في حجرة صاحب « الجهاد » ويتحدث إليه ، ثم يتناول قهوته ويُقِلُّه سيارته في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، فيأوى إلى فراشه .

وصل دار « الجهاد » حوالى الساعة العاشرة من مساء الخميس . ولما رأى . . حجرة صاحب « الجهاد » تخرج بالزائرين تلك الليلة ورغب في التحول إلى حجرة سكرتيرية التحرير فجلس هناك . وفطن الأستاذ (توفيق دياب) صاحب « الجهاد » إلى جلوس « شوق » في الحجرة المجاورة فاستأذن من زواره . وانتقل إلى حيث يجلس « شوق » وجعل يحبِّيه . ويسأله عن صحته فيحمد الله عليها . ثم بدا « لشوق » أن يدخل سيجارة وأن يقدم أخرى لصاحب « الجهاد » وجلسا يدخان . وحانت التفاتة من صاحب « الجهاد » فلمح « شوق » يعالج سعة خفيفة . فاستفسر منه عن أسبابها . ورجا أن تكون آثار برد أوتسرب هواء فأجابه « شوق » إلى أشعر بآثار برد في قصبة الرئة ، وقد يكون مسبباً عن تغيير الأجواء بين الفضلين . ثم شرب القهوة . ولم يبد على ملامحه ولا على قسماته شيء غير مألوف . انتهى حديث البرد ثم قال لصاحب « الجهاد » : لعلى أصيب دفئاً في بيتي الآن فلا تأهب للذهاب . فودعه صاحب « الجهاد » كما يفعل كل ليلة . ولما أشرف على اعتلاء السيارة قال للسائق : رويدك في السير فإن أمامك أربطة من الجنود في منطقة الجيزة ، وقد شاهدت مايفعلون عند مغادرتنا للمتل . وسارت به السيارة إلى ماينتظره بعد ساعات .

بلغ « شوق » منزله الساعة الحادية عشرة ، وصعد إلى مخدعه ، وطفق خادمه الخاص يقوم بخدمته وهبئ له حوائج الليل ثم أرخى عليه سدول الكلة ، وذهب لينام .

وماكاد الخادم يدخل في النوم حتى سمع صلصلة الجرس يستدعيه إلى حجرة

سيده . فقاء مسرعاً . وله عادة قد جرت على ذلك . فلما انتهى إلى حجرة النوم رآه مستيقظاً وكانت الساعة الثالثة أوتريد فشكا بعض ضيق في التنفس ، وطلب ماءً ساخناً وورق كافور ، فبادر الخادم وأحضرهما . غير أن « شوقي » رأى هذه التوبة لانتعاج بعلاجه هو الذى يباشره « بنفسه » فطلب إلى الخادم استدعاء أحد الأطباء النذيين يعالجه دائماً (الدكتور برسكا . والدكتور جلاد) فذهب الخادم يستدعى بالتليفون الدكتور « جلاد » . ثم عاد إلى الحجرة ، فرأى سيده يطلب استدعاء أفراد الأسرة وإيقاظهم . ليراهم تلك الساعة . فصعد بالأمر ، ثم عاد إليه يخبره أن السيدة البارة قريته ستحضر غير أن « شوقي » رأى الفترات الباقية تتلاحق ، وأن الحين وشيك . فأراد ليقول الكلمة الأخيرة ولو لم يحضر أحد من أفراد أسرته ، قال لتابعه : « إني أشعر بانتهاء أمرى فبلغ يا « أحمد » سلامى وتحيتى إلى أصدقائى ، وقل ذلك (لأحمد أفندى عبد الوهاب) فهو يعرفهم . وهنا حضرت السيدة قريته فإذا هو يسلم الروح إلى بارئها . وقد حضر الطبيب ولكن لات حين علاج ، فقد حم القضاء ، وسكنت تلك الأنفاس التى كانت تروّح على الناس فى فترات الحياة كلما اشتدت نكباء الدنيا !

وشيعت جنازة أمير الشعراء فى جمع حاشد من الناس ، من داره كريمة ابن هانىء ، ولم تكن جنازة ضئيلة القدر قليلة الأفراد كما قال الدكتور (زكى مبارك) ، فقد نشرت الصور الفوتوغرافية للجنازة فى الصحف ، وقد حمل نعشه أعضاء « جمعية أبولو » ومنهم الدكتور (زكى مبارك) نفسه .

وقد رثاه على صدر جريدة الجهاد صاحبها الأستاذ (توفيق دياب) كما رثاه على صدر جريدة البلاغ صاحبها الأستاذ (عبد القادر حمزة باشا) .

والتقى الأديباء والشعراء كلمات وقصائد على قبره وقال الدكتور (إبراهيم ناجى)

من قصيدته :

ماكنت إلا أمة ذهبت والعبقرية أمة الأم
أو شعلة أبصارنا خلبت ومنارة نصبت على علم
وتولت وزارة المعارف تنظيم حفلة الأربعين لتأبين أمير الشعراء ، فدعت إليها
البلاد العربية . وجاء أهل الشعر والأدب من أقطار العرب كافة .
لم يوجد عند العرب شاعر أكثر إنتاجاً من شوقي ، وظل يقول الشعر حتى آخر
أيام حياته . بل إنه كان في سنواته الأخيرة أعظم خصباً ، وأوفر شعراً ، وأعمق
عبقرية .

وقد جمع شعر شوقي في ديوان (الشوقيات) وهو أربعة أجزاء . ولكن الدكتور
(محمد صبرى) اشتغل فترة طويلة في جمع ما لم ينشر من شعر شوقي ، وأصدر
كتاب (الشوقيات المجهولة) في جزأين ، وهو بذلك يكمل الشوقيات .
أما مسرحياته الشعرية المنشورة فهي : مصرع كليوباترة ، ومجنون ليلي ،
وقبيز ، وعلى بك الكبير .

وفي النثر له كتاب (دول العرب وعظماء الإسلام) ومعظمه أراجيز مزدوجات
التزم فيها من القوافي ما لا يلزم - على طريقة أبي العلاء - وهي تتحدث عن تاريخ
الإسلام منذ عهدة النبوة حتى عهد الفاطميين .

وله أيضاً في النثر رواية (أمير الأندلس) وكتاب (أسواق الذهب) .
تناول شوقي في أشعاره موضوعات كثيرة متعددة : فله شعر تاريخي وسياسي
 واجتماعي وإسلامي ، وله شعر في الوصف والغزل والمدح والثناء والحكمة
 والأخلاق ، كما أنه له شعر تعليمي إلى جانب الفن الذي ابتدعه في الشعر العربي
 وهو المسرحيات الشعرية .

وقد صدرت كتب ودراسات ، وكتبت مقالات عن شوقي يصعب حصرها ؛
كما ترجمت بعض آثاره الشعرية إلى اللغات الأجنبية .

وَمَا يَحْسُ دَكَرَهُ أَنَّهُ عِنْدَمَا أُنْشِئَ كُرْسِيُ الْأَدَبِ الْمِصْرِي فِي كَلِيَّةِ الْأَدَابِ بِجَامِعَةِ
الْقَاهِرَةِ أُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمُ كُرْسِي (شَوْقِي) . تَكَرَّيْنَا لِأَمِيرِ الشُّعْرَاءِ .
وَهَذِهِ الْمَصَفَحَاتُ الَّتِي أَقْدَمَهَا إِلَيْكَ عَنْ بَعْضِ الشَّخْصِيَّاتِ فِي حَيَاةِ شَوْقِي
لَيْسَتْ بِالْقِرَاءَةِ بَيْنَ النُّسُورِ . أَرْجُو أَنْ تَلْقَى ضَوْءًا جَدِيدًا عَلَى حَيَاةِ أَمِيرِ الشُّعْرَاءِ .
فِي حَيَاةِ الْعَبَاقَةِ تَظَلُّ وَهَجًا دَائِمًا يَضِيءُ طَرِيقَ الشُّعُوبِ . . وَأَمِيرِ الشُّعْرَاءِ وَهَجٍ
لَا يَنْطَفِئُ . وَنُورٍ لَا يَنْجُبُ . وَسَيُظِلُّ الْعَرَبَ يَتَغَنُّونَ بِشِعْرِهِ فِي كُلِّ الْأَجْيَالِ .

عبد المنعم شemis

١ - الشيخ زكى سند

خلال رحلتى الطويلة مع الأدب كنت أحاول معرفة الحقايا والأسرار ، وقد نهيتنى إلى هذا منذ بدايات حياتى أستاذى وشيخى (أمين الخولى) ، وكأنه كان يريد عودته عصر الرواية ، فيروى التلميذ عن شيخه ماسمعه منه . ولكن الشيخ (أمين الخولى) كان أكثر دقة وعلماً من سابقه ، لأنه كان يوصينى دائماً بالتشكك فيما أسمع مهما كانت شخصية الذى أتحدث معه ، كما كان يردد كثيراً قول القدماء : إن المعاصرة صعبة : ومعنى ذلك أن المعاصر لا يستطيع أن يحكم على عصره . وأحداث عصره ، ورجال عصره ، حكماً صحيحاً بعيداً عن الهوى .

وقد أخذ الأوربيون هذه الفكرة عن السلف العالم من المسلمين الذين تخرجوا من إصدار الأحكام على معاصريهم . وقالوا كلمتهم الناصعة : إن المعاصرة صعبة . وأنت ترى كيف يحفظ الإنجليز وغيرهم وثائق السياسة سنين عدداً ، حتى تتغير

الأحوال وتبدل الأجيال . ويأتى جيل جديد وعصر جديد يرى فى هذه الوثائق
رأياً غير مألوف .

ذات يوم أردت أن أعرف شيئاً عن حياة الشيخ (على الليثى) شاعر إسماعيل
الحديدي فقال لى الشيخ (أمين الحولى) : اذهب إلى السيد (على البيلوى) نقيب
الأشراف فى مصر . فإنه من معاصري الشيخ (على الليثى) ، وله به معرفة .
ونكن إياك أن تأخذ الكلام على علته .

وقابلت السيد (على البيلوى) مرات عديدة فى قصره بالحلمية الجديدة
بالقاهرة . واستمعت إليه . وأخذت منه . ولكن الصورة ظلت شاحبة باهتة . فلم
أعرف حقيقة الشيخ (على الليثى) وهو شاعر إسماعيل ونديمه وصفيه حتى اللحظة
الأخيرة فى لحظات ملكه . بل إنه هو الذى ودعه باكياً فى مقطوعته الشهيرة :

أنا أستحق اللي جرى ما حد غيرى اللي انتظلم

طاوعت أسباب الهوى حتى غدا خصمى الحكم

وقد لحنها محمد عثمان فى قصر الجزيرة (فندق عمر الحيام بالرمالك) ، وغناها
(عبده الحامولى) بين يدي الحديدي المعزول : فبكى إسماعيل وأبكى من حوله ،
وهو يردد مع المغنى :

أنا أستحق اللي جرى .

فى حياة الشعراء خفايا وأسرار . وقد ظل سر الشيخ (على الليثى) مسجوناً فى
صندوق جمع فيه أوراقه . ولعن من ينشرها . ثم ضاع الصندوق : وضاعت
الأوراق . ومازال صديق (المهندس الزراعى أحمد عبد الجواد) سبط الشيخ على
الليثى يعدنى بالصندوق الضائع حتى اليوم !

وذات يوم قدمت إلى إحدى السيدات قصيدة للشاعر إبراهيم ناجى مكتوبة
على علبة سجائر . وقد نشرتها فى مجلة الأدب التى أصدرتها بعد وفاة شيخى (أمين

الحقوى) . ثم انطلقاً نور هذه المجلة وسط الزجاجة والدخان الكثيف الذى أحرق الأدب . وأطلقاً أنواره .

كان (إبراهيم ناجى) يكتب قصائده على علب السجائر . ويكتبها بأقلام الحواجب التى تستخدمها النساء إذا لم يجد معه قلماً . وقد يكتبها بوسائل أخرى كثيرة لا يعجز عنها الشاعر ، بل يتلذذ بها الشاعر .

ألم يكن شعراً نواس يكتب على عصائب الحسان . وعلى المناديل ، وعلى غيرها من ثياب النساء فى عصره ؟

وقد روى الرواة أن أمير الشعراء كان يكتب بعض قصائده على علب السجائر ، وكانت علباً غليظة الورق ظهرها أبيض ، ويقال : إن شوقياً كان يجلس مع أصحابه ذات ليلة فى فندق سميراميس ، فهب واقفاً وتركهم . ثم انطلق إلى كوبرى قصر النيل يتمشى . وكتب على ظهر علبه السجائر :

من أى عهد فى القرى تندفق ؟

وكان هذا المطلع هو مطلع حواراه مع نهر النيل ، ثم كان مطلع قصيدته الرائعة عن النيل .

ولكن الدكتور (زكى مبارك) له رواية أخرى عن المناسبة التى دفعت أمير الشعراء إلى كتابة هذه الرائعة البديعة ، وسأحدثك عن ذلك عندما نأتى إلى سيرة (زكى مبارك) الذى قال : إنه حضر ولادة هذه الدرة الغالية .

المهم هو أن (شوقى) كتب القصيدة عند كوبرى قصر النيل أمام فندق سميراميس رحمه الله .

وكنّا نجلس فى فندق سميراميس فى أثناء زهوة الدنيا وبريقها ولمعائها ، ونسهر حتى يوشك الديك أن يصبح ، ومعنا الشاعر المبدع (كامل الشناوى) ، وكفها بين كفيه ، وعيناه فى عينيه . . أعترز اليك . . كان هو معنا ، ولم تكن نحن معه .

فهو صاحب نكتة وضحكة وافمسة والنادرة . . وهو العاشق بلاعشق . المحب
نحب .

وكن (كامل الشاوى) يقول "الشعر لنفسه مع نفسه . ولا تسمعه منه حتى
يكتبه وحيداً بعيداً محققاً . وهو شاعر مقل . ولكن قليله مثل الألباس النادر لا تجد له
مثيلاً بين الجواهر .

آه ! لم عاش لثني معنا لحظة واحدة لغير مطلع قصيدته :
الخيل والنيل والبيداء تعرفنى .
وقال :

الحب والنيل والأنداء تعرفنى .

كان الندى يسقط على الرؤوس والكثوس . حتى تهتز القلوب وتصحو النفوس
مع صحوه الفجر .

والشعر ابن ليل .

ذات ليلة . قلت : (لكامل الشاوى) : إن أبا نواس قال :

اسقنى حتى ترانى أحسب الديك حمارا

فأين حمارتك ؟

وكانت حمارته هى سيارته التى حملتنا معاً إلى المعادى . ولكنه لم يلبث أن عاد
إلى القاهرة ، ليصطحب بوجه الصباح . عندما تشرق الشمس . فقد كان لا ينام
قبل أن يرى نور الصباح !

أسفاً على ذلك الزمان الذى كان يقال فيه شعر .

كنا نتنسم فيه روح شوق وريح شوق تهب علينا من الجيزة الفيحاء . من
كرمة ابن هانى .

وقد قسم الله لى أن أولد وأنشأ فى الحى الذى ولد فيه شوق ونشأ ، بل إن

والذى تعلم في المدرسة التى تعلم فيها شوقى وهى مدرسة (الشيخ صالح أبى حديد)
ببغى عابدين . . وقد عرفت منذ طفولتى وصباى الأماكن التى سار فيها أمير الشعراء
وسلكها . حارة بعد حارة . وشارعاً بعد شارع . بل إن والدى سلك طريق شوقى
فى التعليم . حتى مدرسة الحقوق ، فارتبط الحب الأبوى والحب الشاعرى على غير
قصد منى ولا معرفة .

وعندما كنت تلميذاً فى المدرسة الإبراهيمية الثانوية زاد عشقى لشوقى .
وحفظت روايته (مجنون ليل) وقدمتها ومعى زميلى الإذاعى الشهير (عبد الوهاب
يوسف) على مسرح المدرسة فى حفل ختام تخرجنا قبل أن نذهب إلى الجامعة .
وكان (عبد الوهاب يوسف) هو بطل المسرحية . . وهو قيس : وقد لمع رحمه
الله ، وكان له نبأ . ثم انطفأ . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وذات يوم قال قائل :

- إن الشيخ (زكى سند) هو الذى يكتب لشوقى أسعاره .

وكان الشيخ (زكى سند) يسكن فى حارة السقاين ، على بعد خطوات من
دار شوقى فى حى الخنق ، وكان مدرساً للغة العربية فى مدرسة الآباء اليسوعيين .

الشيخ (زكى سند) !

هل تهتز الصورة الجميلة الرائعة بسبب الشيخ (زكى سند) ؟

وكان معنا شاب مكفوف مفسود ممن حفظوا القرآن ، ولفظهم الأزهر ، فلم
يصل إلى شىء فى العلم غير المهاترة والسباب ، وكان يقول : إنه أكثر علماً من
(طه حسين) ، وأنصح بياناً ، وأقول قولاً وكلاماً ، وكان ينشر بعض كلامه فى
جريدة (كوكب الشرق) التى أصدرها (حافظ عوض بك) السكرتير السابق
للخديو عباس حلمى الخلوع ، ثم تولى رئاسة تحريرها فيما بعد (طه حسين) .
أنا لا أذكر اسم هذا الشاب الذى خلع الجبة والعمامة ، وتزيا بزى طه حسين

ووضع على عينيه نظارة سوداء . ولكننى أذكر أنه أشاع فى الحى بعد إشاعته عن نفسه بأنه أعظم من (طه حسين) أن الشيخ (زكى سند) هو الذى يكتب لشوق أشعاره .

وعرفت أن هذا الشيخ (زكى سند) من حارة السقاين . وكان لى فيها أهل ، وكان لجدى هناك بيت . فأغرانى نزق الصبا أن أبحث عن بيت الشيخ (زكى سند) لأعرفه . وأعرف حكايته . فسألت . وكان لى صاحب عجوز من أبناء الشراكسة . ونحن من أبناء الفلاحين ، اسمه (حسن أفندى) وله بيت كبير فى حى الحنفى . على مقربة من بيت والد أمير الشعراء . وكان (حسن أفندى) رجلاً طروباً بالشعر والغناء . فسألته عن بيت الشيخ (زكى سند) حتى أراه ، وأتحدث معه . فقال لى :

- لا تتعب نفسك يا ولدى . . فقد مات الشيخ (زكى سند) من زمان . .
وليس له بيت . فقد كان يسكن بالأجرة عند امرأة تبع البرتقال .
ودعانى نزق الشباب إلى البحث عن المرأة البائعة البرتقال ، فوجدتها على باب حارة السقاين . وسألها عن الشيخ (زكى سند) فقالت لى :
- تعيش أنت . . مات من زمان . . الله يرحمه . ولكننى ظلت أبحث عن الشيخ (زكى سند) .

سألت صاحبي الأديب الذى نسيه الناس - وأسفاه - الأستاذ (راشد رستم) . وهو واحد من العارفين بالسير والتواريخ ، وقد مضى رحمه الله ، ولم يقل لنا شيئاً مما نريد بعد أن أضربه الدهر كما يقولون ، ولكنه ظل أديب عصره ، وفارس ميدانه فى الشعر والنثر ، ويكنى أنه ترجم بعض قصائد شوق إلى الإنجليزية ونشرها فى لندن . كما ترجم قصائد أخرى لشعرائنا المحدثين . . هل تعلمون ؟
كان الأستاذ (أربرى) يقول : إن (راشد رستم) أقدر أديباء العرب على

ترجمة الشعر لأنه شاعر .

و (راشد رستم) من الأكابر الذين يشار إليهم . وهو من كبار المثقفين
المصريين في العصر الحديث . بل إنه واحد من الذين قال (محمود سامي
البارودي) في أمثالهم :

خلقت عيوفاً لأرى لابن حرة على يداً أغضى للاحين يغضب
وكان منهم (سعد زغلول) وقد تمثل بهذا البيت الشهير في إحدى خطبه
الرنانة .

أما الأستاذ (أربرى) فإنه كبير المستشرقين الإنجليز في العصر الحديث ، وقد
ترجم قطعة من (مجنون ليلي) لأمير الشعراء .

لقد نقد (أربرى) رواية (مجنون ليلي) من وجهة نظر المسرح ، وكان النقاد
عندنا ممن يبحثون عن الساقطة واللاقطعة قد وجدوا ما يريدون . فهاجموا (أحمد
شوقي) بأقوال الناقد الإنجليزي ، ولم يفهموا وجه النقد ، ولاوجه الحقيقة .
شوقي شاعر وليس ممثلاً ، وشكسبير شاعر وممثل .

هذه هي القضية التي لا يفهمها نقاد الأدب .

حاسب شوقي على شعره لا على تمثيله .

وحاسب شكسبير على شعره وتمثيله .

بعد بنا هذا الحديث عن الشيخ (زكى سند) الذي أبحث لك عنه ، ولكنه
حديث قريب من الموضوع ، لأن الشيخ (زكى سند) ما كان له أن يكتب
مسرحيات شعرية .

قال لى (راشد رستم) : إن الشيخ (زكى سند) كان من أساتذة شوقي في
اللغة والنحو ، وكان يسكن في حارة السقاين على مقربة من بيت شوقي في حي
الخنينى بعابدين .

ثم حُجِبَ (داود بركات) رئيس تحرير الأهرام في الملاحظات التي سطع فيها نجم شوقي وهو لدى سنده (أمير الشعراء) على السؤال الحائر ، فقال (داود بركات) :

« كان (أحمد شوقي بك) يسكن داره في حي الحنفى . والشيخ (زكى سند) مؤسس جماعة (مكارم الأخلاق) يسكن في حارة السقاين ، وكنت أسكن في هذا الحى . فكنا متجاورين . وكنا كل صباح نلتقى في الطريق . فيذهب شوقي إلى سراى عابدين . والشيخ زكى إلى مدرسة اليسوعيين للتدريس . وأذهب أنا إلى جريدة الخرسنة . فكان الكثيرون من الأزهريين الذين لا يصدقون أن خريجاً من خريجي مدارس فرنسا (كأحمد شوقي) يستطيع قرض ذلك الشعر الراقى . كقصيدته في مدح الخديو توفيق :

لَكَ مصرٌ تجرى تحت عرشك نيلها
ولك البلاد عريضها وطولها
وكقصيدته في مؤتمر جنيف :

هت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء
وكلنا القصيدة كان الطلبة يحفظونها . فكانوا يقولون : إن الشيخ (زكى سند) صديقه هو الذى يساعده في نظم هذه القصائد . لما يروته بين الاثنين من الصداقة . ولاجتماعهما كثيراً لأنهما من حي واحد ! » .

ولكن شخصية الشيخ (زكى سند) كانت من الشخصيات المؤثرة في حياة شوقي برغم أننا لانعرف كثيراً عن هذا الشيخ الأزهرى الذى صاحب أمير الشعراء ، وصادقه ، وأحبه : وليس للشيخ (زكى سند) نشاط أدبى في عصره ، ولم يعرف عنه أنه كان يقول الشعر أو ينظم الشعر .

شيخ غامض مجهول . لم يذكره شوقي في ذكرياته . أو عند أضدقائه . ولعله نسيه فيما نسي من ذكريات حى الحنفى الذى كونه وكون شاعريته الإسلامية .

وقد يكون الأمر على غير ما تنصرون : فإن (أحمد شوقي) عندما أحس بأن الناس يهتمون شاعريته . ويعودون بها إلى الشيخ (زكي سند) أراد أن ينق عن نفسه هذا الزعم الباطل . فسكت عن ذكر الشيخ الذي تعلم منه اللغة والنحو والعروض والقوافي .

ولكن (شوقي) يقول :

- أستاذي الوحيد الذي أعد نفسي مديناً له هو (الشيخ حسين المرصفي) صاحب (الوسيلة الأدبية) وتلمذت سنتين (لحقني بك ناصف) . وهما أستاذاي حقيقة اللذان استفدت منهما .

فأين مكان الشيخ (زكي سند) في حياة (أحمد شوقي) بعد هذا الكلام ؟ إن الشخصيات التي عاشت في حياة أمير الشعراء كثيرة . . وسأحدثك عنها لترى معي كيف يعيش الشعراء ؟

٢ - شيخ العروبة أحمد زكى باشا

ارتبطت حياة شوقي خلال مراحل الدراسة من مدرسة الحقوق ، وخلال الوظيفة فى القصر وصديقه (أحمد زكى باشا) الذى اشتهر بلقب شيخ العروبة . كان (أحمد زكى) سر تشرىفانى الخديو (عباس حلمى) ، ثم تولى منصب السكرتير الثانى لمجلس النظار (الوزراء) ، وفى عام ١٩٠٨ كان سكرتيراً للجامعة المصرية القديمة . وأستاذاً لخصاية الإسلام فى الجامعة ، وقد اهتم بالأدب والدراسات الإسلامية .

يقول (أحمد شفيق باشا) رئيس الديوان الخديوى فى تلك الفترة ، ووكيل الجامعة المصرية القديمة بعد ذلك ، إن (أحمد زكى بك) مترجم أول مجلس النظار تشرف بمقابلة الجناب العالى يوم ٢٢ من مارس ١٨٩٢ وقدم لسموه كتاب (الرق فى الإسلام) الذى وضعه باللغة الفرنسية بعد أن ترجمه إلى اللغة العربية ،

وإن الخديو قابل هذا المجهود بالشكر والثناء ، فقد أثار الإنجليز حملة شديدة ضد الإسلام في تلك الأيام لأغراض سياسية ، وأتخذوا من موضوع تجارة الرقيق وسيلة للدعاية حتى يثبتوا أقدامهم في مصر ، واختلفوا قضية أثارت الرأي العام عندما اشترى اثنان من الباشوات بعض الجوارى سرّاً من تاجر رقيق ، وهما (أحمد المنشاوي باشا كبير أعيان طنطا ، ومحمد الشوارى باشا) كبير أعيان قليوب : وقدم الاثنان للمحاكمة وصدرت ضدهما أحكام .

المهم هو أن (أحمد زكى) كان من الشخصيات اللامعة في عصره ، وقد عرف بهويته للأدب ، فكتب دراسة عن (ابن زيدون) شاعر الأندلس ، ويبدو أن (شوقي) كان هو الذى أوحى لصديقه بالاهتمام بدراسة أدب الأندلس عندما نفي (شوقي) إلى تلك البلاد . فقد استغرق (أحمد زكى) في دراسته حتى إنه كتب رسالة لطيفة قال فيها : إن المعتمد بن عباد وقف يتلقى التهئة بالعيد من مهنته ، فكان يرد على كل واحد منهم بعبارة (تختلف عن العبارة) التى قالها لغيره ، وأحصيت العبارات التى رد بها ابن عباد في ذلك اليوم فكانت مائة عبارة ، وبعد ذلك عجز الذين تابعوه عن ملاحقته !

هذه هى شخصية (أحمد زكى) الذى نصب نفسه للدفاع عن العرب والعروبة ، وكان دائم الحديث عن أمجادهم ، ثم اتخذ لنفسه أسلوباً رصيناً يذكرك أساليب القدماء من البلغاء ، ولكن بغير زخارف ، وكان يحلوه إقامة حفلات على الطريقة البدوية ، حتى إنه أقام حفلاً للكاتب اللبناني المعروف (أمين الريحاني) عند زيارته لمصر ، وكانت من أعاجيب الحفلات ، حيث نصب خيفة عند سفح الأهرام ، وأعد الطعام على طريقة العرب الأصلاء ، وارتدى هو نفسه زيهم ، وأعد الجياد والجمال للترمة حول الأهرام وهناك نطق (أمين الريحاني) بكلمته الذائعة : أنا الشرق عندى فلسفات . . من يبيعنى بها طائرات ؟

وسأحدثك عن هذا الحديث بعد أن نتحدث معاً عن قصة شوق مع (أحمد زكى) .

بدأت صلة (أحمد زكى) بأمير الشعراء عندما كانا طالبين بمدرسة الحقوق . وقد التحق (أحمد زكى) بهذه المدرسة (١٨٨٣ م) وكان مقرها في دار البدروى شارع سوق الزنط بياب شعرية . ثم التحق بهذه المدرسة جيل من الوافدين سنة ١٨٨٥ بينهم فتى نحيف نحيل . هزيل ضئيل . قصير القامة ، وسيم الطلعة له عيون متألقة ولكنها متقلبة .

ووصف (أحمد زكى) زمينه الجديد في مدرسة الحقوق عندما رآه أول مرة فقال :

(إذا نظر للأرض دقيقة واحدة فللسماء منه دقائق متبادية . وإذا تلفت صوب العين فلا يلبث أن يرمى ببصره نحو الشمال . وهو - مع هذه الحركات المتتابعة المتنافرة - هادئ ساكن وادع كأنما يتحدث بنفسه أويتلاغى مع عالم من الأرواح . ما كان يلبسنا فيها نأخذ فيه من اللهو والمرح . ولا تهاف معنا على تلفف الكرة بعد الفراغ من تناول الطعام .

هذه صورة مصغرة (لأحمد شوق) عند أول عهدي به في حياة المدرسة . وكانت هذه الصورة المصغرة هى بداية الشاعر الذى عرفه زميله في الدراسة (أحمد زكى) .

قبل ذلك بدأت إشراقات الشعر العربى الجديد عند شاعر آخر يرتبط بالجنس والدم و (أحمد شوق) وهو (محمود سامى البارودى باشا) الشركسى الذى حمل لواء الشعر الجديد في عصره ثم سلم شعلة الشعر لشاعر آخر من الأرستقراط هو (إسماعيل باشا صبرى) . وجاء (أحمد شوق) ليحمل الشعلة التى كان يحملها (هوميروس) شاعر اليونان الأكبر وصاحب (الإلياذة والأوديسا) وحمل معها

الشمعة الأخرى التي حملها أبو الطيب المتنبي :
والشعر في حيث النفوس تلذه لافي الجديد ولا القديم العادي
كان ديوان المتنبي مع (أحمد شوقي) أينما ذهب وقد أخذه معه إلى باريس كما
حدثنا الأمير شكيب أرسلان عندما جلسا معاً على قهوة من قهوى الشاترليزيه .
وحدث بينهما أول تعارف .

ولكن علاقة أحمد زكي بأمير الشعراء تحددت في مكانين هما : مدرسة
الحقوق . وقصر عابدين .

وقد وصف شيخ العروبة حكاية تعرفه أو معرفته بأحمد شوقي في مدرسة الحقوق
وصفاً كاملاً ، وقال :

« كان المرحوم الشيخ (محمد البسيوني البياني) من علماء الأزهر المعدودين .
وقد آتاه الله بسطة في الجسم والعلم فكان بديناً فطيناً ، وكان قصيراً فوق قصير لأنه
كان طويلاً مكبراً ، لا تحطه النكتة البارعة اللاذعة . وكان يدرس لنا فنون البلاغة
من كتاب من تصنيفه هو « حسن الصنيع في المعاني والبيان البديع » .

أما خارج المدرسة فكان متخصصاً ينظم القصائد في مدح الخديو توفيق ، كلما
حل موسم أو أطل عيد ، وكان إماماً له في الصلوات ، لإصلاح الفجر .

ما لبث أن رأى في تلميذه شوقي بواكير العبقرية وبوادر المواهب الربانية ،
فأنشأ الأستاذ يعرض قصائده على تلميذه قبل أن يرسلها إلى المعية السنية فألى
« جريدة الوقائع المصرية » وغيرها من الصحف العربية . وكان شوقي - ببساطة
التلميذ الناشئ - يشير بمحو هذه الكلمة - وتصحيح تلك القافية وحذف هذا البيت
وتعديل ذاك الشطر .

والأستاذ يغتبط بقوله وينزل على رأيه .

وأحسن ما أذكره للأستاذ البسيوني - رحمة الله عليه - أنه كان يتحدث بذلك

إلينا وإلى الفرق المتقدمة علينا وفيها أصحاب السعادة (عثمان باشا مرتضى وأبو بكر
يحيى باشا وعلى ثاقب باشا وشاكر بك أحمد) دون أن تأخذ العزة بالإثم وأن
تغريه الكبرياء اللازم للمدرس بإنكار الفضل الذي منحه الله للدارس .
فهذه أول سعادة أحرزها شوقي .

على أن الأستاذ البسيوني تحدث بهذا النبوغ الباكر إلى صاحب العرش ،
وأفهمه أن بين أثواب الصغير (أحمد شوقي) براعة نادرة وذكاء رائعاً ، وأنه خليق
برعايته العالية ليكون زهرة يتضوع شذاها في مشارق الأرض ومغاربها .

وكانت هذه الشهادة أكبر الأسباب التي حفزت الخديو (توفيق ١٨٨٧) إلى
إرسال شوقي على نفقته الخاصة لإتمام الدراسة العلمية في باريس ولتغذية مواهبه
الغريزية بما يراه في الغرب من روائع البدائع ، وقد تحققت له وفيه الآمال .
أما صلة شوقي بأحمد زكي داخل قصر عابدين فإنها تكاد تكون مجهولة ، ولم
يتحدث شيخ العروبة عن حياة شوقي في القصر ، مع أن شيخنا كان كثير الزثرة ،
وكان يخلو له دائماً أن يتصدر المجالس ، ويكتب الكلمات ، ويروى عن نفسه وعن
غيره الروايات ، كما كان يسافر دائماً في معية الخديو (عباس حلمي) . ولكن
(شوقي) لم يكن في أذيال الخديو ولم يضع نفسه في حاشيته مع أنه كان محسوباً
عليه في الحاشية .

كان شوقي شاعر الأمير ، وقد سبقه إلى هذا اللقب الشيخ (على الليثي) شاعر
الحضرة الفخيمة الخديوية أيام إسماعيل ، وسبقها قبل ذلك الشيخ (محمد شهاب
الدين) شاعر (محمد علي) ثم شاعر (عباس الأول) . وقد أخطأ الذين كتبوا
تاريخ الأدب المصري الحديث عندما قالوا : إن الشاعر الرسمي لدولة محمد علي هو
السيد علي الدرويش . فإن الدرويش لم يظفر بهذا اللقب ، ولذلك ارتعى تحت
أقدام (إبراهيم باشا) وحاول أن يصبح شاعره المداح ، ولكن إبراهيم كان مشغولاً

عن الشعر بالحرب .

ويبدو أن معرفة شوق للشيخ على الليثي جعلته يحدد مكانه في قصر عابدين .
وقد ذكر شوق أن المرحوم الشيخ (على الليثي) كان كلما التفت عيناه وعيناه . أنشد
قول المتنبي :

محاجر مسك ركبت فوق زئبق .

كما قال شوق عن ذكرياته مع الشيخ على الليثي :

« حدثني سيد ندماء هذا العصر الشيخ على الليثي قال : لقيت أباك وأنت
حمل لم يوضع بعد ، فقص على حلما رآه في نومه ، فقلت له وأنا أمازحه : ليولدن
لك ولد يخرق - كما تقول العامة - خرقاً في الإسلام .

ثم اتفق أنى عدت الشيخ في مرض الموت ، وكانت في يده نسخة من جريدة
الأهرام ، فابتدر خطابي يقول : هذا تأويل رؤيا أبيك ياشوق ، فوالله ما قالها قبل
في الإسلام أحد .

قلت : وما تلك يامولاي ؟

قال : قصيدتك في وصف (البال) التي تقول في مطلعها :

حف كأسها الحب فهي قضة ذهب

وهاهي في يدي أقرؤها فاستعذت بالله وقلت :

- الحمد لله الذي جعل هذه هي (الخرق) ولم يُصِرَّ بالإسلام فتيلاً .

وأنت ترى من هذا الحديث كيف عرف أمير الشعراء هذا الشاعر الذي كان يهز
قصر عابدين هزاً في حياة إسماعيل ؟ عندما كان شوق طفلاً يحب . فإن الشيخ (على
الليثي) كان من الشخصيات الهامة والخطيرة في عصره . وكانت تربطه بعلى بك
شوق والد أمير الشعراء صلة قوية . فقد كان على بك شوق موظفاً في القصر .
ويبدو أنه كان من المعجبين بالشيخ على الليثي . حتى إنه كان يحدثه عن أحلامه .

ورأى شوق كيف كان بعض الباشوات يعامل الشيخ (على الليثي) في قصر
عابدين حتى إنهم كتبوا على باب غرفته : « إنما نطعمكم لوجه الله » !
وقد أخطأ أحمد زكي باشا في رواية هذه الحكاية عندما قال : إن الذي كتب
هذه الكلمة هو (محمد عثمان جلال) مترجم روايات مولير ، وصاحب الترجمة
الثلاثة (الشيخ متلوف) : لأن (عثمان بك جلال) لم يشتغل يوماً واحداً في
حاشية إسماعيل أو في قصر عابدين . ولكن الذي كتب هذه الكلمات هو (مصطفى
باشا العرب) الذي كان بحكم وظيفته في القصر رئيساً للشيخ على الليثي ، وقد
غاضه الشيخ وسخر منه . وقال فيه قصيدة مطلعها :

الموت والجوع والإفلاس والجرب

ولا يكون رئيسي مصطفى العرب

وقد تعلم شوق هذا الدرس . ولم يسمح بأن يكتب على باب غرفته في
القصر :

- إنما نطعمكم لوجه الله .

كما فعلوا مع الشيخ على الليثي . وقد روى (عباس محمود العقاد) رواية أخرى
عن معاملة باشوات القصر لشاعر القصر . وقال : إن (خيرى باشا) مهردار الخديو
(أى حامل الأختام) هو الذى ضايق الشيخ الليثي حتى اضطره إلى تأليف
مقطوعته اللطيفة :

عندنا طاحونة في البلد

لكن ثقيلة ع الحمار

دورت فيها البغل عصي

دورت فيها المهردار !

كما نسب وضع لافتة (إنما نطعمكم لوجه الله) على باب غرفة الشيخ إلى

خيرى باشا المهردار .*

إن تاريخ الأدب المصرى الحديث ضائع للأسف . ولم يكتبه أحد حتى اليوم . بل إن معظم أحداثه لم تسجل . لأن تاريخ مصر الحديث لم يسجل أيضاً . وليس تاريخ الأدب إلا جزءاً من التاريخ العام .

لقد عمل شوقى فى ديوان المعية السنية كما يقول أحمد زكى الذى كان يقوم بوظيفة تشرىفاتى ، وكان عباس حلمى لا يتذوق الأدب العربى . ولكن الظروف السياسية جعلته يهتم بهذا الأدب . فظل شوقى يتدرج فى الصعود إلى مكانته حتى وصل إلى الذروة العليا ، بل إلى الغاية التى ليس وراءها غاية . فأصبح من أقرب المقربين . ومن أصحاب الكلمة المسموعة ، والرأى النافذ ، عند عباس .

وكانت علاقته بأحمد زكى هى علاقة الود والزمالة ، حتى إنه كان يتوسط عنده فى شئون بعض موظفى القصر ، وكان شوقى يلقى طلبات صديقه . وعندما نفى أمير الشعراء إلى الأندلس وقعت حادثتان هامتان اشترك فيها أحمد زكى :

وكانت الحادثة الأولى عندما أرسل إليه شوقى من منفاه يطلب بعض الكتب . وقد كتب أحمد زكى بقلمه يصف ما حدث ، وأتركه لك :

« من هناك كاتبى شوقى يطلب كتباً يستعين بها على تعرف مجد الإسلام وفخر العروبة فى الأندلس . فبادرت وأرسلت إليه (نفح الطيب) و (المعجب بتلخيص أخبار المغرب) و (فلائد العقيان) وأيضاً . كتاب رحلتى (السفر إلى المؤتمر) . ماذا أقول عن دهشتى بعد أسبوع ؟ أعاد لى الرقيب العسكرى تلك الكتب ومعها كلمة فيها ملاحظة على أن هذا الصنيع من موظف بالحكومة قد لا يتسق لواجبات الوظيفة !

وبعد ذلك بيومين أو ثلاثة جاءنى الصديق عدلى شوقى بك وهو أحمد بك عمر

لأنوسل إلى المرحوم رشدى باشا حتى يسعى عند السلطة في عدم إعادة المال الذى كان رسمه إلى شوقى ليعيش به في بلاد الغربية . فكأنها كانت تريد أن يتكفف شاعر الشرق برغم ثروته الطائلة أو أن يموت هو وأولاده من الجوع في بلاد الغرب ! وشاء ربك تكميل مساعى رشدى باشا بالنجاح . فأخذ أحمد بك عمر يبعث بشيء من مال شوقى في منفاه ، ولكن في أوقات معلومة وبمقادير محدودة .

لأنريد أن أتحدث هنا عما كان المرحوم السلطان حسين يوالينى به من أسباب الحفاوة والالتفات ، حتى إنه اختارنى بمثابة مستشار فى لكرميته النبيغة صاحبة السمو سيدنى الأميرة قدرية هانم . لكننى أتحدث الآن عن أمر يخص (شوقى) في أيام منفاه . . .

أما الحادثة الأخرى التى جرت داخل قصر عابدين بعد نفي شوقى بسبب قصبته التى أرسلها إلى السلطان حسين كامل . والتى صارح فيها السلطان بما كان موضوع التهامس بين كل اثنين يلتقيان في مصر . وهى قصبته المشهورة التى أشار فيها إلى الحال القائمة بقوله :

إن الرواية لم تتم فصولاً .

وهى التى يقول فيها :

أأخون إسماعيل فى أبنائه ولقد ولدت بباب إسماعيلاً؟

وكانت كلمة شوقى : إن الرواية لم تتم فصولاً : قد سارت في مصر كما تسير النار في الحطب ، وأهبطت من الأمثال السائرة . وأقلق السلطة البريطانية التى أمرت بنفى شوقى من مصر .

وعندما كان شوقى في المنفى وقعت الحادثة الأخرى التى يروها أحمد زكى باشا . وأتركه يحكيها بنفسه لك . .

فهو يقول :

« وكان السلطان حسين يدعو الذين استخلصهم لوده ، فرادى وجباعات .
يتناول الغداء معه من حين إلى حين في سراى عابدين . وحسبى أن أقول : إنه بعد
المفراغ من الطعام تفضل فدعاني إلى تناول القهوة بالبهو الكبير . فجلس في الركن
الشمالي الشرقي والمرحوم محمود شكرى باشا الكبير على يمينه ، وصاحب هذه
الذكريات على يساره .

أخذ يتحدث عن النهضة العلمية وعن التطور في الحركة الأدبية ، فاستعرض
الزمن الذى حدث في الصحافة وفي الأغاني القومية . ودار الكلام بنوع خاص على
المرحوم إسماعيل صبرى باشا وعلى ما أوتي من الفتوح في هذه الأبواب التى جعلته
إمام الشعراء في كل فن من فنون العهد القديم . وفي كل مطلب من مطالب العصر
الحديث .

ثم سألتى - رحمه الله - عن ترجمة كلمات كثيرة . ثم انتقل إلى الكلام عن
طرافة الاقتنان عند شعراء الإفرنج . وسألتى :

- أبين العرب الآن من في قدرته أن يماشهم مع هذه (العقلية) الجديدة
وهذه (الذهنية) الحديثة ؟

فقلت : إن هذه المزية قد تفرقت في كثير من شعراء العصر ، ولكنها اجتمعت
كلها في شوقي . .

وهنا ظهرت لى إشارة من المرحوم محمود شكرى باشا ، فتشجعت بها على
المضى في الكلام ، وقلت لمولانا السلطان :

- إن (شوقي) ممن تزدان بهم الدول . وإن مثله لو كان في زمان الخلفاء
لتحاطفته دمشق وبغداد وقرطبة .

تكررت الغمزات من ناحية شكرى باشا . . بالموافقة والمطابقة .
فاندفعت أتفنى بحسان شوقي ، وبما أفاض على العروبة والإسلام من نفثاته

وبما منحه للشعر والأدب من نفحاته ، وأن هذه وهذه حسنات باقيات وآثارها خالدة . وهنا تزايدت الإشارة الرقيقة والدقيقة من المرحوم شكرى باشا .

فعاودت الهجوم على الموضوع ولاسيما أنى آنتست من السلطان مايشعر بالرضا والقبول ، فقد التزم الإطراق والإصغاء فى سكوت وسكون .

وهكذا تماديت حتى قلت كلمة فيها جرأة . شجعتى عليها ما رأيته من موقف السلطان ، فقد قلت مامعناه بالاختصار :

- أصبح أن تبقى مصر محرومة فى عهدك السعيد بلبلها الغريد ، وأن يرفرف هذا الطائر الغريد الوحيد بجناحيه على قرطبة وطليلطة وعلى إشبيلية وغرناطة ، بعد أن خرجت منها العروبة خروج الأرواح من الأبدان ، إن الذى تترمقه الثقافة العربية والقومية العربية من ابن إسماعيل ومولى النيل أن يعمل بالخطة الكريمة التى رسمها أرحمته النبيلة لنفسه التى صاغها الله من الخير للخير ، فيعيد إلى القاهرة رونقها المجتمع فى ثوب شوق .

وهنا تكررت الإشارة وتوالت الغمزات من محمود باشا شكرى . فأدركت أننى قد أكون تجاوزت الحد ؛ ولكن السلطان مازال مصغياً ، كأنه يطلب المزيد من الكلام ، وماذا عسيت أن أقول بعد أن قد استوعبت كل ما فى الصدر ، بكل مايجيش بالخطر ؟ فبقيت ساكناً منتظراً تحول الحديث إلى موضوع آخر من السلطان نفسه ، أو صدور إشارته بالانصراف .

وقضى ربك بالخلاص من هذا المأزق .

فبعد برهة قصيرة وقف السلطان ، فوقفنا ، ثم تقدمت فقبلت يده الكريمة وانصرفت .

وقابلت فى الردهة الصديق المفضل (أحمد بك حسان) . ولما أنا أرفه بعين نفسى بمحادثته ، وأتفلس الصلحاء للخروجى من ذباك الموقف ، إذا بالمرحوم

شكرى باشا يهرول ورائى ، ثم طفق ينال بتعنيى على اندفاعى فى تقرير شوقى برغم الإشارات المتوالية التى كان يبدىها لى من حين إلى حين للتخفيف من غلوائى فى الحديث ، فلم يكن من سبيل للاعتذار سوى أن السلطان كان مصغياً تمام الإصغاء ، وأثنى فهمت من إشارتك أنك راض عن صنيعى تمام الرضاء ، بل إنك قد تكون سبقتنى إلى تقرير هذه فهذا عذرى ، وما فعلت سوى نصيح السلطان بما انطوت عليه سريرتى واستقر فى صدرى .

لست أدعى أن كلامى له أثر فى نفس السلطان . ولكن الذى أعرفه أن الله سبحانه وتعالى جعله يضيف حسنة كبيرة إلى حسناته الكثيرة ، فأصدر أمره بعد أيام إلى المرحوم رشدى باشا لیسعى باسمه الكريم لدى السلطة فى إرجاع شوقى إلى وادى النيل وقد كان :

ولكن (شوقى) العائد من المنفى بدأ يغير طريق حياته ، ويشارك فى الحياة الاجتماعية والسياسية والأدبية مشاركة عميقة مؤثرة . وظل مرتبطاً بصديقه أحمد زكى باشا ارتباطاً وثيقاً .

وعندما جاء الكاتب اللبنانى المعروف أمين الريحانى إلى القاهرة عام ١٩٢٢ ، أقيمت له حفلات استقبال كثيرة ، كانت أعجبها حفلة شيخ العروبة عند سفح الأهرام كما تقدم :

كانت صحراء الأهرام مزينة بالأعلام المصرية ، وقد ضربت فيها المضارب تتخللها الجمال والأبقار ممثلة مساكن البدو ، وظهر الفرسان على صهوات الخيل يلعبون بسيوفهم ويرقصون بجيادهم على نغمات الطبول والمزامير . ونصب فى صدر المكان سرادق كبير لاستقبال المدعوين ، ومدت فيه مائدة الشاى حاوية لأطباق الفطير والتمر والحلوى .

وكان نجم الحفلة هو (أحمد شوقى) أمير الشعراء . وبعد الافتتاح وقف

الدكتور محبوب ثابت ليلقى قصيدة شوق التى قال فى مطلعها :
قف ناج أهرام الجلال وناد هل من بناتك مجلس أوناد ؟
وحيا أمير الشعراء الضيف الأدب الفيلسوف قائلاً :
رفعوا لك الرمحان كاسمك طيباً إن العهاد تحية الأجداد
وتخبروا للمهرجان مكانه وجعلت موضع الاحتفاء قوادى
وقال شوق فى هذه القصيدة بيتاً من الشعر مما كان يصفه القدماء بأنه أحسن
بيت قالته العرب إنه يقول :

إن الذى ملأ اللغات محاسناً جعل الجبال وسره فى الإنباد
لقد كان أحمد زكى باشا من كبار المتحمسين لشوق ، وظل متعلقاً بعقريته
منذ كانا طالبين فى مدرسة الحقوق ، حتى ذهب شوق إلى عالم الخلد .
كما كان زكى باشا يحكم صلته بشوق وأسرته ونشأته يعرف كثيراً عن حياته
الشخصية ، ولكنه لم يكتب عنها بالتفصيل ، وهو الذى عرفنا بأن بيت (على بك
شوق) والد أمير الشعراء كان خلف جامع الشيخ صالح (أبو حديد) بحى الحننى
بين السيدة زينب وعابدين ، وهو الذى ذكر لنا قصة زواج شوق من ابنة (حسين
بك شاهين) جار الأسرة الشوقية فى الحى ، وأحد أصحاب الثروة واليسار ، وقد
رزقه الله بثلاث بنات تزوج شوق إحداهن . كما تزوج المهندس أحمد بك عمر
الثانية ، أما الثالثة فقد تزوجها يعقوب بك حلمى وهو من الأثرياء .
ولكننا لم نعرف حتى الآن كيف تم الزواج ؟ وما اسم هذه الزوجة ؟ لأن التقاليد
القديمة كانت لاتذكر هذه الأشياء .

ولم يرث شوق عن والده غير هذا البيت الذى تحدث عنه أحمد باشا زكى ،
فقد ضيغ الوالد كل ثروته ، حتى إن جدة شوق لأمه هى التى كفلته ، وقدمته وهو
طفل إلى الخديو إسماعيل حيث كانت وصيفة فى القصر ، وهذه السيدة اسمها

(تمراز) وهى من أهل بلاد المورة ، وقد سبها إبراهيم باشا فى أثناء حرب العثمانيين واليونان مع غيرها من بنات اليونان ، ثم أعتقها وزوجها (بمحمد بك حلیم) أحد رجاله الأتراك وهو السبب فى اتصال أسرة شوقى بقصر عابدين .

٣ - الشيخ حسين المرصفي

قال أمير الشعراء في حديث صحفي نشرته مجلة سركيس في عدد (يونيو - أغسطس سنة ١٩١٥) وكان شوقي قد أدلى بهذا الحديث إلى سليم سركيس في فبراير ١٨٩١ .

ذكر شوقي أنه وفق لنظم الشعر وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وأن أستاذه يومئذ كان الشيخ (حسين المرصفي) ، وقد قرأ عليه كتاب (الكشكول) لبهاء الدين العاملي ، وديوان الشاعر المصري الرقيق بهاء الدين زهير .
في تلك السن الباكرة قال شوقي :

قصارى العيش أن يذهب إن خلواً وإن مرّا
فإن شئت فمت عبداً وإن شئت فمت حراً
وأعجب الشيخ المرصفي كثيراً بأول بيتين قالهما تلميذه أحمد شوقي ، وبشره

بمستقبل في الحكمة عزيز .

كما نشرت الأهرام في ٣٠ أبريل سنة ١٩٢٧ حديثاً أجرته معه بمناسبة مهرجان الشعر الذي أقيم بعد ظهر اليوم السابق ، أى في ٢٩ من أبريل حيث بايعته وفود العرب بإمارة الشعر .

وقال شوقي :

- أستاذى الوحيد الذى أعد نفسى مديناً له هو الشيخ حسين المرصنى صاحب (الوسيلة الأدبية) ، وتعلمت سنتين لحفى بك ناصف . وهما أستاذى حقيقة اللذان استفدت منهما .

كما أعاد شوقي فى حديثه مع الأهرام أنه قرأ كتاب (الكشكول) على الشيخ المرصنى فى دروس خاصة . وأضاف أن الشيخ كان يجب هذا الكتاب كثيراً ، ويفضله على غيره من الكتب .

وقد كان (حفى ناصف) الذى تخرج من مدرسة دار العلوم سنة ١٨٨٢ من تلاميذ الشيخ حسين المرصنى ، ويبدو أن الشيخ هو الذى رشح (حفى ناصف) ليكمل معه (أحمد شوقي) معارفه الأدبية واللغوية .

ولكننا سنقف فى هذا الحديث عند الشيخ حسين المرصنى ، الذى كان نادرة عصره ، ولكن مؤرخى الأدب المصرى الحديث لم يلتفتوا إليه كما يحسن الالتفات ، ولم يدرسوه كما تجب الدراسة ، مع أنه الرائد الأول للنقد الأدبى فى العصر الحديث ، وكان ظاهرة من ظواهر العبقرية المصرية خلال مرحلة الإنتقال من العصور الوسطى إلى العصر الحديث .

كان المرصنى أستاذاً للشاعرين الكبيرين : محمود سامى البارودى وأحمد شوقي . وهذا الذى نمتى العبقرية فى قلبيهما ، ولكن صلته بالبارودى كانت أشهر

من صلته بشوق .

وقد وصف الموصنى تلميذه (محمود سامى البارودى) قائلاً :

« هذا الأمير الجليل ، ذو الشرف الأصيل ، والطبع البالغ نفاؤه ، والدهن

المتناهى ذكاؤه . محمود سامى باشا البارودى » .

ثم تحدث عن شاعرية البارودى فقال :

« جاء من صنعة الشعر اللائق بالأمراء ، ولشعر الأمراء كأبى فراس والشريف

الرضى والطغرائى تميز عن شعر الشعراء ، كما سزاه ، ومصدق ذلك ما سألقيه

عليك من قصائد أنشدها فى وزن قصائد لبعض مشاهير المتقدمين وروياها » .

وقد نشر الشيخ فى كتابه (الوسيلة الأدبية) عدداً من قصائد البارودى ، الذى

ربطته به صداقة حميمة .

كتب البارودى عندما كان يحارب مع تركيا ضد روسيا (١٨٧٨) قصيدة من

روائعه قال فيها :

ياناعس الطرف إلى كم تنام أسهرتنى فيك ونام الأنام؟

أوشك هذا الليل أن ينقضى والعين لاتعرف طيب المنام

ثم توجه الشاعر إلى أستاذه ، وقال له :

مولاي قد طال مرير النوى فكل يوم مر بي ألف عام

يقتبل الصبح ويمضى الدجى وينقضى النور ويأتى الظلام

ولاكتاب من حبيب أتى ولأخو صدق يرد السلام

من خلفنا البحر وتلقاها سواد جيش مكفهر لهمام

فتلك حالى لارمتك النوى فكيف أنتم بعدنا ياهمام؟

وأنت ترى أن الشيخ (حسين الموصنى) قد ربط البارودى ببعض فحول

الشعراء من المتقدمين . وفى مقدمتهم أبو فراس الحمدانى ، والشريف الرضى .

ولكن (شوقي) ارتبط في ذهن المرصني والشاعر الرقيق البهاء زهير . فقرأ معه ديوانه ، والظاهر أن الشيخ لاحظ حداثة سن شوقي عندما بدأ معه رحلة الأدب . فاختار له من الشعر أسهله ، وهو موقف يخالف موقف الشيخ مع البارودي ، لأن البارودي عرف المرصني بعد أن اقتحم الشعر اقتحاماً .

ولكن (شوقي) الشاعر الشاب اصطحب معه ديوان المتنبي عندما سافر إلى باريس للدراسة ، وترك ديوان البهاء زهير الذي قرأه مع الشيخ ، غير أن أمير الشعراء تعلم الدرس الأول من المرصني وهو صاحب نظرية في صقل المواهب الأدبية ، يلخصها في قوله :

« لاسبيل لمعرفة الصناعة (صناعة الأدب) إلا بكثرة الحفظ ، ورعاية مانبيهاك على رعايته ، ونورد لك ما يكون مثلاً لما ينبغي أن تحصله في حفظ ، وترديد النظر فيه من قصائد لمشاهير الشعراء » .

وكانت للمرصني آراء جديدة في فهم معنى الأدب ، تخالف آراء القدماء الذين قالوا : إن الأدب هو الإلمام من كل علم بطرف .

وتتلخص تعريفات الشيخ المرصني للأدب في أقواله :

« أعلم أن الأدب معرفة الأحوال التي يكون الإنسان المتخلق بها محبوباً عند أولى الألباب الذين هم أمناء الله على أهل أرضه ، من القول في موضعه المناسب له .

« حقيقة الأدب أن يعرف كلُّ حدود وظيفته فلا يتخطاها ، حتى لا يكون داخلاً فيما لايعنيه .

« مجمل الأدب أن يكون الإنسان بحيث يرضى عن غيره ، ويرضى عنه غيره .
« الأدب معرفة الفنون الكلامية ومواقعها .

ولكن هذه التعريفات المتناثرة في كتاب المرصني لن توصلنا إلى تعريف للأدب

يمكن تحديده أو معرفة ملامحه . وهى فى مجموعها محاولة للخروج من القديم إلى الجديد . وهو يخلط معنى الأدب كفن بمفهوم الأدب كخلق حسن يتخلق به الإنسان .

والأمر الذى يسترعى النظر هو أن المرصنى الذى تلمذ عليه الشاعران الكبيران البارودى وشوقى كان له رأى فى الشعر أوقعنا فى حيرة . فقد ذكر أنه ليس لمعرفة الشعر وصنعه كبير فائدة ، إذ لم يبق له طلب ، ولا ترتبط به حاجة ، وغاية مآلقاته اليوم إجادة التقليد .

أما النثر فقد تحدث عنه المرصنى ، وقال : إن الكتابة لا يمكن الاستغناء عنها ، فهى من ضرورات الحياة .

وهذه النظرية التى دعا إليها المرصنى غريبة ، وهى لا تكاد تعرف قيمة الفن فى ذاته - شعراً أو نثراً - وصلته بالحياة . كضرورة من ضرورات الحياة . أما التقليد الذى يتحدث عنه فإنه يحدث فى النثر كما يحدث فى الشعر ، ولكنه لا يودى إلى التقليل من قيمة الشعر أو رفع قيمة النثر .

ويبدو أن المرصنى كان يعتقد أن اتباع البارودى لقوالب الشعر القديم إنما هو لون من التقليد ، ولعله كان ينظر إلى الشكل لا إلى المضمون ؛ فإن شعر البارودى كان شكلاً آخر غير شعر السيد على الدرويش والشيخ محمد شهاب الدين ومحمود صفوت الساعاتى وأشباهم من شعراء عصره . واعتقد المرصنى أن البارودى على قدم مع أبى فراس والشريف الرضى وأبى نواس .

ولكن الشيخ الناقد كان ينظر إلى الشعر من وجهة نظر واحدة ، ولذلك أصدر حكمه القاسى على الشعر .

أما النثر فقد كان تلميذه (عبد الله باشا فكرى) هو الذى يحدده ، وقد كسر هذا الكاتب العظيم قيود القديم فى جرأة ومقدرة وبراعة ، حتى إنه كتب النثر الفنى

باللهجة المصرية ، ولكن تجديد النثر أيسر من تجديد الشعر ، ولأن النثر ليست له قوالب محكمة مثل الشعر ، ولأن نماذجها في الأدب القديم لها أشكال مختلفة : فهناك أسلوب القرآن الكريم وهو ليس من الشعر ولا من النثر ، ولكنه يمنح الكاتب من الأساليب والصور ما يمكنه من الكتابة ، أما الشاعر فإنه لا يفيد من القرآن إلا في حدود السمو القرآني الرفيع ، فإذا انحدر شعره إلى أغراض أخرى كما فعل أبو نواس فإن القرآن بعيد عنه ، وهو لا يستطيع أن يقترب من القرآن . وهكذا الشأن في أسلوب النبي عليه الصلاة والسلام في أحاديثه . كما أن التراث القديم من نثر النثرين له أشكال مختلفة عند كبار الكتاب مثل ابن المقفع والجاحظ .

وعندما تصدى عبد الله فكري لتجديد النثر وصل سريعاً إلى هدفه : مما جعل الشيخ الناقد يقول هذا الكلام .

ولكن المرصني برغم ذلك ظل معروفاً بأنه أستاذ الشاعرين الكبيرين : البارودي وشوقي . ولكنه لم يدرك الزمان الذي أصبح فيه أحمد شوقي أميراً للشعراء . .

وشخصية المرصني من الشخصيات الباهرة ، فهو أزهري مكفوف . كان أبوه من كبار العلماء في الأزهر . وقد تصدى هو نفسه للتدريس في الجامع الكبير . وعندما أنشأ على باشا مبارك دار العلوم عين الشيخ حسين المرصني مدرساً عاماً . فبدأ تدريس العلوم الأدبية من كتابه الشهير (التوسيلة الأدبية) إلى جانب دروس الإنشاء التي جعلها جامعة للنحو والصرف ورسم الحروف والعروض والقوافي والبلاغة وأدبيات اللغة والمنطق . كما درس المرصني علوماً أخرى في الصحة وعلوم النبات والحيوان والطبيعة والفلك إلى جانب قواعد الإسلام وأركانه .

كان هذا الشيخ المكفوف دائرة معارف متنقلة . وقد أتاحت له ظروف عصره أن يصبح مدرساً بمدرسة العميان والخرس التي

اسمها الخديو إسماعيل عام ١٨٧٥ ، وكانت أول مدرسة من نوعها في مصر ، وقد أدخلت فيها طريقة (برايل) فتعلم المرصني الخط العربى والفرنسى بالحروف البارزة بالحس باليد .

وأنت ترى أن المرصني كان أول أزهري مكفوف تعلم الفرنسية . قبل طه حسين ، ولهذا الموضوع قصة .

كان الشيخ يجلس مع على باشا مبارك وزير المعارف ، وكان معه قنصل فرنسا ، والجلس يسحدث مع الوزير باللغة الفرنسية ، فغضب الشيخ لذلك ، وقال : يقول رسول الله ﷺ ، لا يتناجى اثنان دون الثالث ، فإن ذلك يحزنه ، ثم قام من فورهِ ، وبدأ يتعلم الفرنسية حتى أتقنها .

كما كان الشيخ يملك آلة للكتابة ، ويستخدمها ، وهى عجيبة أخرى من عجائبه .

وقد ترجم المرصني نصوصاً من الفرنسية إلى العربية ، ومنها بعض أشعار لافونتين .

هذا الأستاذ الذى أوجزت له بعض ملامحه كان له أثر قوى فى نفس شوقى وقد ذكرت لك رأى المرصني فى شعر عصره ، وهو رأى يقلل من قيمة الشعر فى الحياة كما قلت . ولكن أمير الشعراء استطاع بالعبقريّة أن يثبت خطأ النظرية التى دعا لها المرصني .

وليس من شك فى أن (شوقى) الذى كان يتلقى دروساً خصوصية على هذا الشيخ قد عرف بمحمل آرائه ، ولم تقتصر الدروس على كتاب الوسيلة الأدبية ، أو قراءة قصائد فى ديوان البهاء زهير ، أو تصحيح بعض الأبيات للشاعر الناشئ ، بل إنها بحكم الاتصال المباشر لابد أن تتناول قيمة الشعر .

وأنا أعتقد أن (أحمد شوقى) بدأ حياته الشعرية متحدياً لهذه الآراء التى

تتفص من قيمة الشعر ، وأراد أن يثبت - وهو الموهوب - حقيقة الشاعر . وإذا لم يكن للمرصني أثر في حياة شوقي غير هذا الكنى ، فقد فجر الأستاذ في عواطف تلميذه ومشاعره تلك الرغبة الهائلة الخلاقة التي جعلت من شوقي أميراً للشعراء العرب .

ولو عاش المرصني ورأى تلميذه لغير رأيه في الشعر . ولعرف أن مابدأه مع البارودي كان يجب أن يؤدي إلى شوقي .

يكنى أن يكون المرصني أول ناقد عصري في الأدب العربي ، ويكنى أن يكون أستاذاً للبارودي وشوقي الشاعرين . ولعبد الله فكرى الكاتب الناصر . . ودعك من شعر عبد الله فكرى فإنه أقل من شعر الشيخ على الليثي .

٤ - شيخ الشعراء . . إسماعيل باشا صبرى

مازلنا حتى اليوم نكتشف أن أعذب الأغاني المصرية فى العصر الحديث كان يكتبها إسماعيل باشا صبرى الشاعر الذى نقل أنغام الطرب من الابتذال الرخيص إلى المعانى الرائعة الرفيعة .

نقل إسماعيل صبرى الأغنية المصرية من كلمات :

• طربوشه مايل على خده .

• الورد قال ياغصن البان

• سبل شعوره على قوامه

• قالت عصافير الجنة

إلى لون آخر من الشعر العاطفى الدافئ .

وقبل إسماعيل صبرى كانت أشهر مجموعة من مجموعات الأغاني المتداولة وهى

(سفينة شهاب) التي جمعها الشيخ محمد شهاب الدين شاعر دولة محمد علي من أغاني مصر والشام .

ثم ظهرت في عصر إسماعيل مجموعات أخرى من الأغاني التي لحنها وغناها عبده الحامولي ومحمد عثمان . وسيطرت عليها نغمة (أمان . . أمان . يالاللي) التي ظهرت في قصائد ركيكة أقحمت على المسرح في ذلك الوقت .

وكان الشعراء يؤلفون كلمات الأغاني في مصر منذ عهد بعيد ، وقد نشر (السيد علي الدرويش) سيد شعراء عصره مجموعة أغانيه في خاتمة ديوانه المطبوع خلال عصر محمد علي . وقد ترجم أدواراً من التركية إلى العربية .

وكانت للشعراء سفن غير سفينة الشيخ شهاب . ولكنها لم تشتهر ، بل إن نسخها المخطوطة مازالت مفقودة ، وقد يشتت من الحصول عليها ، ويبدو أن الشيخ (محمد شهاب الدين) هو الذي تسبب في اختفائها وضيعاتها حتى يشهر وحده ، وتبقى له وحده (سفينة شهاب) !

كان الشيخ شهاب الدين صاحب السلطة في عصر محمد علي ، لأنه هو الذي كتب قصيدتين نقشتا بماء الذهب على شبايك جامع محمد علي من الداخل ومن الخارج ، وكان صاحب السلطة في عصر عباس الأول ؛ لأنه أصبح شاعره المفضل ، وله في كل قصر من قصوره غرفة وله معه منادات وأحاديث ونكت . أحب أن أقول لك : إن الألحان والأنغام والأدوار كانت تركية ، لأن مصر كانت تابعة من توابع سلطان آل عثمان .

كتب السيد علي الدرويش أدواراً معربة نقلها عن التركية ، ومنها دور :

وجه بديع الجلال

عينه وسنا كحال

واللفظ عذب المقال

هذا سبب بهجتي

ويستمر الدور بهذه الألفاظ المصطنعة ، وفي نهاية كل رباعية يقول :

هذا سبب بهجتي

وقد ركبت هذه الكلمات على اللحن الموسيقى ، وهى كلمات تربط بين العامة والفصحى ، وليس لها إعراب . وفيها حركة أحياناً ، وسكون أحياناً . .

ولم يفهم الذين ينشرون (سفينة شهاب) هذه اللعبة ، وظنوا أن الشعر ليس له ميزان ، أو مكسور ، لأنهم لم يدركوا أن الكلام كان يركب على اللحن الموسيقى . لا على موازين الشعر العربى ، أو أى موازين شعر نعرفها ، مع أنها موزونة ، ولها ميزان .

كانت عملية تعريب غريبة ، وهى تحتاج إلى دراسة صوتية .

من هذه الأدوار العربية دور :

وجهه الحسن همت فيه

وفى عيونه وفيه

عذب الملائف فيه

أصل ابتهاج النظر

من بعده العقل راح

ألمى يسلى براح

للقلب منه انشراح

أصل ابتهاج النظر

وعملية التركيب اللفظى مع عملية التعريب جعلت هذه الأدوار شيئاً جامداً

لا يمت إلى الفن بصلة .

وعندما ظهر محمد عثمان وعبد الحامولى وألظ فى عصر إسماعيل حاول الفنان

المصرى الخروج من هذا المأزق ، ولكن التأثير التركى ظل باقياً برغم الرغبة فى الخروج من التقليد والمحاكاة .

وقد أدرك الشاعر إسماعيل صبرى هذه الفترة ، وكان محمود سامى البارودى يرفض تأليف الأغانى لعبده الحامولى ، ويعتقد أن الشاعر لا يجوز له الانخراط إلى مستوى المغناتى .

ولكن البارودى نفسه هو الذى طلب من إسماعيل صبرى تأليف الأغانى الوطنية لمحمد عثمان وعبد الحامولى ؛ لأن الشاعر الفارس العائد من المنفى وجد شيئاً جديداً فى الأغنية المصرية .

ليست هى أغنية :

عصفورى أهشه

وأنكش له عشه

أشهر أغانى المظ ، ولكنها أغنية إسماعيل باشا صبرى :

عشنا وشفتنا سنين ومن عاش يشوف العجب

شربنا الضنى والأنين جعلناه لروحنا طرب

وغيرنا تملك وصال واحنا نصيينا خيال

ثم أصبحت الكلمة التى يملكها الشاعر مملوكة للشعب ، ومن هذا الباب دخل أحمد شوقى على يد أستاذه إسماعيل صبرى .

ومن المعروف تاريخياً أن (أحمد شوقى) عرف البارودى ، والتقى فى حلوان حيث تجاورا فى المسكن ، ولكن هل أثر الشاعر الفارس المهزوم فى الشاعر الشاب المتطلق ؟

كان البارودى قد خرج من باب القصر .

وكان شوقى قد دخل إلى بريق القصر .

وقال شوق قصيدة مخزية في استقبال أحمد عرابي الزعيم العائد من المنفى ، قال في مطلعها :

صغارٌ في الذهاب وفي الإياب أهذا كل شأنك يا عرابي ؟
بريق الذهب يغرى بالكذب .

وكانوا يقولون للشعراء في الأزمان الغابرة : إن أعذب الشعر أكذبه .
ولكن إسماعيل باشا صبرى الشاعر الرقيق المصرى العريق ظل صادقاً لا يكذب .

كان أول الشعراء الذين لا يكذبون في هذا العصر الحديث .
عواطفه لا تكذب ، إحساسه لا يكذب ، وطنيته لا تكذب .
وقد نسيه كثيرون لأنه لم يكذب . . ولكنه كان المعلم .
عندما كان محافظاً للإسكندرية تحمل وحده مسئولية الزعيم مصطفى كامل حين ألقى خطابه الشهير على مسرح زيزينيا وقال فيه كلماته الباقية :

بلادى . . . بلادى . . لك حى وفؤادى
أنت أنت الحياة . . ولا حياة إلا بك يا مصر

وتحدى المحافظ الوطنى إسماعيل باشا صبرى سلطة القصر وسلطة الاحتلال
البريطانى ، وسمح للزعيم الشاب بإلقاء قصيدته - لخطابه - عن مصر الأسير فى
أغلال الاحتلال .

قيلون هؤلاء الرجال ، ولكنهم ضوء الحياة ، ومبعث الآمال .
ثم تولى إسماعيل باشا صبرى منصب وكيل وزارة الحقانية (العدل) . ومكتبه
هناك فى مواجهة مكتب (مصطفى كامل) زعيم الحزب الوطنى ورئيس تحرير
اللواء . ولم يكن صبرى باشا يعود إلى بيته قبل أن يذهب إلى صديقه وصفيه وحبيه
مصطفى كامل باشا فى مقر جريدة اللواء . . وهو يتحدى السلطة كلها فى قصر

عابدين وفي دار المعتمد البريطاني .

هذه هي شخصية إسماعيل باشا صبري ، صاحب السلطة ورفض السلطة .
الإنسان لا يكون عظيماً إلا حينما يملك ويرفض ، والذي يملك لأنه يريد أن
يملك ، أو الذي يرفض لأنه لا يملك غير الرفض - لا يساوي جناح بعوضة !
ولذلك كان الشاعر إسماعيل باشا صبري عظيماً ، واستحق أن يلقب قبل كل
شعراء عصرنا الحديث بلقب : شيخ الشعراء ، قبل أن يستحق شوقي لقب أمير
الشعراء ، وقبل أن يحمل حافظ إبراهيم لقب شاعر النيل ، وخليل مطران لقب
شاعر القطرين : أي مصر والشام .

وإسماعيل صبري هو الأستاذ الحقيقي لشاعرية أحمد شوقي .
كانت والدته إسماعيل صبري تقيم في حلوان بسبب المرض ، وكان يزورها ،
فالتقى هناك وأحمد شوقي . .

والنفوس الشاعرة تتلاقى دائماً .
التقى شوقي والبارودي في لحظات الضعف بعد العودة من المنفى .
والتقى شوقي وإسماعيل صبري في لحظات الضعف بسبب مرض الأم .
ثم تفجرت مشاعر شوقي .

لقاء الشعراء ليس لقاء عادياً . كما يتخيل بعض الناس ، ولكنه لقاء العبقريه ،
ونحن لم نرصد لحظات لقاء شوقي مع البارودي أو صبري . . وهؤلاء الثلاثة عباقره .
والأمر العجيب أنهم جميعاً التقوا في حلوان .
سقى حلوان ذى الكروم وما صُف من تينيه ومن عنبه
وقال آخر :

شمسان لم يخلق الله مثلها
شمس بأسوان والأخرى بحلوان

وما أشهى لحظات الحب والوجد في حلوان !
 هناك كان الصَّبى والشباب ولحظات الغياب .
 ولك أن تتصور كيف ألتقي أحمد شوقي وإسماعيل صبرى في حلوان .
 وأنا قلت لك منذ البداية : إن الشاعر كان يريد أن يغنى ، ولكنه لم يجد
 الكلمة ، ولم يجد النغمة فيما سمعه كما رويت لك .
 ثم استطاع إسماعيل صبرى تحرير الأغنية من النغمة الساقطة ، وكتب للمغنين
 أعذب أغنيات مصر :

الحلو لما انعطف
 أنجبل جميع الفصوص
 والحد آه .. ما انقطف
 ورده بغير العيون

كان في إحدى لياليه يستمع إلى المطرب محمد عثمان ، فلم تعجبه أغانيه ، وقال
 بعض جلسائه :

- هل تكتب لنا أغنيات نستغنى بها عن تلك الأغاني المبتذلة ؟
 فأجابهم إسماعيل صبرى إلى طلبهم بشرط أن يغنيها محمد عثمان في تلك الليلة ،
 ووافق محمد عثمان على شرط الباشا . وكتب إسماعيل باشا صبرى كلماته :

- قدك أمير الأغصان من غير مكابر
 وورد خدك سلطان على الأراهمر
 والحب كله أشجان يا قلب حاذر
 والصد وبيا الهجران جزا المَخاطر

ولحن (محمد عثمان) وغنى تلك الأغنية الشهيرة في الليلة نفسها .
 هذا هو المفتاح للفن الشعري الجديد .

لقد سأل السلطان حسين كامل سلطان مصر التشریفاتی شیخ العروبة (أحمد زکی باشا) عن الشاعر الذی یخلف إسماعیل صبری وكان شوقی فی منفاہ .
وقال أحمد زکی باشا للسلطان :
- هو بلبل مصر المنئی أحمد شوقی .

وكان شوقی فی منفاہ قد ترنم بمصر ، وقال قصیدته المشهورة :
أحرام علی بلبله الدوح حلال للطیر من کل جنس ؟
ثم أصبحت نغمة شوقی هی نغمة إسماعیل صبری .. وكلاهما عزف علی عیدان حب مصر ، وكل عود له نغم .

كان صبری باشا من عشاق الآنسة می زیادة ، وقال فیها شعراً ترجم إلى الفرنسية ضمن مجموعة من الشعر العربی القديم ، وهو یقول لها :
أنت روحانیة لاندعی أن هذا الحسن من طین وماء
وانزعی عن جسمك الثوب بین للملا تكونین سكان السماء
وهو حب روحانی رفیع ، تعلمه منه أحمد شوقی فی غرامیاته التی يتحدث عنها المتحدثون .

وكانت كلمة شوقی :
صوفی جالك عناننا بشر من التراب وهذا الحسن روحانی
من أحسن ما قیل فی الشعر العربی .
ولكن شوقی كان یقترب من الحسن أكثر من اقترابه فی الشعور مع أنه كان عذری الحب .

فبدأ بالشعور الرفیع فی قصیدته :
یاجارة الوادی طربت وعادنی ما یشبہ الأحلام من ذکراك
ثم یغود إلیه الحسن :

وأُيِّت في ليلين شعرك والدجى وثبت كالصبح المنور فاك
ولكن هذا الشعور الحسى غرق فيه الشاعر الأكبر ، سلطان العاشقين عمر بن
الفارض ، ونحن نغرق فيه بوعى أو بغير وعى ، وبظل الحب مشتتاً .

إن قصة عشق إسماعيل صبرى للآنسة مى زيادة مشهورة ، ولكن قصص
عشق شوق كثيرة فقد عشق (فاطمة رشدى) وعشق المطربة (ملك) وعشق
(أم كلثوم) وكتب لها قصيدة التحدى التى غنتها بعد وفاته بسنوات ، ولم تغنها فى
حياته ، وهى التى يقول فى مطلعها :

سلوا كثوس الطلاب هل لامست فاما واستخبروا الراح هل مست ثنائياها؟
وكان يريد منها أن تشرب معه كأساً فأبت وغضب ، وغضبت . . ثم انتهت
القصة حتى مات .

أما فاطمة رشدى فقد كان يسميها (بطة) وكان يصطحب بوجهها الصبيح ،
ويشرب معها القهوة فى الصباح أوفى الضحى ، ويقبل خديها وينصرف .
والمطربة ملك هى التى شهرها شوق وجعل لها اسماً بين الأسماء ، ولكن كثيرين
لا يعلمون . وهى موهبة خارقة فى الغناء المسرحى ، وكتب لها شوق أبدع قصائده
الغنائية .

إن الشاعر لا يعيش بغير حب .
وقد تعلم شوق من أستاذه إسماعيل صبرى أعظم قيمة فى الحياة وهى الحب .
إسماعيل صبرى قال أعظم الشعر فى الحب الإلهى .

أنا يا إلهى عند بابك واقف لا أبتغى عنه الزمان عدولا
ماجئت أطلب أجر ما قدمته حاشى لجودك أن يكون قليلا
وشوقى هو شاعر الحب الإلهى فى قصائده الرنانة الذائعة . . ومنها :
رم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي فى الأشهر الحرم

ولو أنك جردت شعر إسماعيل صبرى وشعر أحمد شوقي من مدائح الملوك
والحكام ، واستخلصت روح الشاعر لوجدت فيها روحاً واحدة ، تنبع من قلب
واحد .

لقد كتب طه حسين وأحمد أمين عن الشاعر إسماعيل صبرى ، ولكنها - وهما
أستاذان - لم يدركا قيمة هذا الشاعر فى صنع الشاعرية المصرية الجديدة .
كان المجتمع المغلق يغلق أبواب الحب ولا يعترف بها ، مع أن الشاعر عاشق ،
ولا يعيش بغير حب . وقد عاش البارودى قصص حب كثيرة ، وعاش إسماعيل
صبرى قصة عشق عظيمة للآنسة مى زيادة .

كما عاش شوقي قصص حب لانهصى ولا تعد .
وتعلم الشعراء من بعدهم كيف يحبون ويعشقون . وكانت قصص (إبراهيم
ناجى) شهيرة فى القاهرة - وظل (أحمد رامى) يمثل عاشق أم كلثوم حتى هذه
اللحظة ، وهذا العشق هو سبب اشتعال العبقرية .

وماذا تكون الحياة بلاحب ؟

ولكن حب إسماعيل باشا صبرى كان من لون آخر عظيم وجليل .
حب ليلة الثلاثاء عند الاجتماع الأسبوعى مع (مى زيادة) التى أحبها أحمد
لطفي السيد ومصطفى صادق الرافعى وعباس محمود العقاد وغيرهم من المشهورين
والمغمورين .

وحب الشاعر يخالف هؤلاء جميعاً .

يالواء الحسن أحزاب الهوى أيقظوا الفتنة فى ظل اللواء

وهذه هى قصيدة الثلاثاء فى غرام (مى زيادة) . . .

قلت لك : إن أعظم ماتعلمه شوقي من أستاذه إسماعيل صبرى هو الحب .
ولكننى حتى هذه اللحظة لم أعرف الحياة الشخصية لشيخ الشعراء ، ولا الحياة

الشخصية للأمير الشعراء فقد أخفيت هذه الصفحة إخفاء تاماً كاملاً . . أوشبه
كامل .

كان الحب محرماً . . وعندما استحلّه هؤلاء الشعراء غلّفوه بالقصائد ،
وأصبحت بعضها مثل أوراق السلوفان بلانبض ولاقلب ولاعاطفة !
ولكن الذى يبقى بعد كل هذا الكلام هو أن (إسماعيل باشا صبرى) كان
أستاذاً فى الحب . . وكان أستاذاً للأمير الشعراء أحمد شوقى .

٥ - أمير البيان شكيب أرسلان

ينسب مؤرخو الأدب وأساتذته حقيقة هامة في تاريخ الأدب العربي ، وهي أن هذا الأدب وحدة عضوية كاملة . وقد تمثل هذا في العصر الحديث حين بايع شعراء العرب (أحمد شوقي) بإمارة الشعر .

احت الإقليمية ، وزالت الحدود والقيود ، وأصبح شوقي أمير شعراء العرب بغير نزاع ، ولا خلاف .

الدم التركي الكردي الشركسي اليوناني ذاب كله في عروق شاعر عربي القلب واللسان ، اسمه أحمد شوقي .

باسم هذا الشاعر أنشئ كرسي الأدب المصري في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وتقاسمه اثنان من العالقة هما أمين الخولي وأحمد أمين ، ولكل واحد منهما منهجه وأسلوبه . ولكنها جلسا على كرسي واحد في عام واحد ، ونسي الاثنان أن الكرسي

الذى جلسا عليه معاً كان ملك أحمد شوقي .

ثم بدأت المباراة الهائلة بين أمين الخولى وأحمد أمين حول الأدب المصرى . كان أحمد أمين يحقق ويتحقق من عروبة مصر ، ويربطها بمهد العرب فى جزيرة العرب ، وقد كتب دراساته فى كراسات كان يلقيها علينا فى قاعة الدرس ، ولكنه لم ينشرها فى كتاب مع أنه كان يملك المطابع والورق والأخبار فى (لجنة التأليف والترجمة والنشر) التى تولى رياستها ، وأصدر منها كتبه ومؤلفاته ، كما أصدر مجلة الثقافة .

هناك سبب خفى جعل (أحمد أمين) لا ينشر كتابه عن الأدب المصرى ، وهو الذى كان من أشد الكتاب حرصاً على نشر كلماته ، حتى إنه كان يتوقف خلال إلقائه لدروسه علينا ونحن طلاب علم فى كلية الآداب ، ثم يقول بصوت منموع : - هذا الموضوع يصح أن أكتبه مقالاً فى مجلة الثقافة .

لماذا أخفى أحمد أمين محاضراته عن الأدب المصرى التى ألقاها علينا فى كلية الآداب ؟

وقبل أن أجيب على هذا السؤال أحب أن أذكر لك موضوع المحاضرات ، وهى هامة وأساسية وخطيرة فى تاريخ الأدب المعاصر .

• تركزت محاضرات أستاذنا أحمد أمين حول موضوعات أساسية هى :

• علاقة مصر بجزيرة العرب قبل الإسلام .

• دخول العرب مصر بعد الفتح ، وتوزع القبائل العربية فى أقاليم مصر ، وما

حدث من اختلاط بين العرب والمصريين .

• استعراب مصر عن طريق اللغة العربية ، وانتشارها ، وتأثيرها باللغة المصرية

التي كانت سائدة بعد الفتح ، وقد كانت هذه اللغة المصرية خليطاً غير متمازج بين الهيروغليفية والمريطاقية واليونانية ، ولعلها كانت مانسميه باللغة القبطية ، أى

المصرية ، لأن كلمة قبطى معناها فى اللغة هو المصرى .
« تاريخ الولادة والحكام لمصر بعد الفتح العربى ، وقد وصل أستاذنا أحمد أمين إلى عصر ابن طولون .

هذه هى محاضرات أستاذ كرسى شوقى فى الجامعة عن الأدب المصرى .
أما أستاذنا الآخر الأكبر أمين الخولى فقد وضع نظريته للآداب ودراستها ، ووضع منهجاً جامعياً لدراسة الأدب المصرى ، وكانت خلاصة نظريته ودراسته هى : إقليمية الأدب ، فثارت ضجة ، وكان شيخى أمين الخولى يحب تفجير القنابل ، وإحداث الضجة . وهذه إحدى علامات اليقظة الفكرية ، فلا يقظة بغير ضجيج يبعث الحياة .

ونسى الشيخ الكرسى الذى كان يجلس عليه مع زميله أحمد أمين ، وهو كرسى شوقى .

وأصبحت هناك قضية .

أحمد أمين يقول : إن مصر استعربت ، وأصبحت عربية ، وأدبها عربى .
وأمين الخولى يقول : إن الأدب المصرى أدب مصرى إقليمى يحمل خصائص مصر .

هذه هى قمة الصراع بين العملاقين اللذين جلسا معاً فى عام واحد على كرسى أحمد شوقى . ثم دخل عبد الوهاب عزام فى حياء وأدب ليقول كلمته ، وكان هذا العملاق الثالث من أكابر الأدباء العلماء ، فآلف كتاباً سماه (مهد العرب) عن جزيرة العرب .

أنا أحدثك عن خلفيات الفكر الأدبى فى مصر خلال فترة خطيرة من فترات التاريخ العربى ، وكان السبب هو (أحمد شوقى) أمير الشعراء ، وصاحب كرسى الأدب المصرى فى جامعة القاهرة .

وأنت تسألني :

ما العلاقة بين شكيب أرسلان وبين هذه القضايا ؟

وأقول لك : إن (شكيب أرسلان) درزي شامي ، وهو من أمراء جبل الدروز . وهو عربي القلب واللسان ، ومن كبار المدافعين عن العرب والإسلام في العصر الحديث . ومن أكابر المثقفين العرب الذين تنسأهم الأجيال الجديدة .

شكيب أرسلان أمير البيان

وأحمد شوقي أمير الشعراء

والشيء العجيب الغريب هو أن (شكيب أرسلان) لقَّب (محمود سامي البارودي) أميراً للشعراء قبل شوقي ، ثم اعترف بعد ذلك بأن (شوقي) هو أمير الشعراء .

كان شكيب أرسلان يعتبر البارودي أمير الشعراء ، واتخذهُ أستاذاً وإماماً . ولكنه عرف (أحمد شوقي) بعد ذلك ، وبايعه بإمارة الشعر ، واقترح عليه أن يجمع شعره في ديوان وأن يسميه الشوقيات .

وقبل أن يحمل شوقي لقب إمارة الشعر كان شكيب أرسلان يعرف هذه الحقيقة ، وهو القائل في رثائه :

هذا أمير الشعر غير مدافع في الشرق أجمع مذ فتق لثاته
لو كان وحى بعد وحى محمد لانشق ذاك الوحى عن آياته
وقد ذكر شوقي بداية صلته بشكيب أرسلان : فقال :

« جمعتنى باريز في أيام الصبا بالأمير شكيب أرسلان ، وأنا يومئذ في طلب العلم ، والأمير حفظه الله في التماس الشفاء ، فانعقدت بيننا الألفة بلاكلفة ، وكنت في أول عهدي بنظم القصائد الكبيرة . وكان الأمير يقرأ ما يرد عليه منها منشوراً في صحف مصر ، فتمنى أن تكون لي يوماً ما مجموعة ، ثم تمنى على إذا هي

ظهرت أن أسميها « الشوقيات » .

كما عبر شوق عن صلته بشكيب أرسلان في شعره ، وقال :

صحبت شكيباً برهة ولم يفز بها سوى على أن أصحاب كثير
حرصت عليها آتة ثم آتة كما ضن بالماس الكريم خبير
فلما تساقينا الوفاء وتم لي وداد على كل الوداد أمير
تفرق جسمي في البلاد وجسمه ولم يتفرق خاطر وضمير !

هذه هي الصداقة الحميمية التي ربطت بين أمير البيان وأمير الشعراء :

ولكن (داود بركات) رئيس تحرير الأهرام قال : إنه هو الذي أطلق لقب أمير الشعراء على شوق .

ويبدو أن (داود بركات) كان أول من نشر هذا اللقب في صدر جريدة الأهرام ، وأن (شكيب أرسلان) هو الذي أطلقه ؛ لأنه سبق أن أطلقه على محمود سامي البارودي قبل شوق .

وقد لخص شكيب رأيه في شوق ، ورأى فيه الشاعرية بجميع شروطها :
النسج الرقيق المتن ، والأسلوب الرشيق الرصين ، واللغة العربية الفصحى التي
لا تؤثني من جهة ، والمعنى المتناهي في الدقة ، اللابس من اللفظ أجمل حلة ،
والانسجام المطرد من الأول إلى الآخر في سكب واحد وسبك متوارد .

كان لقاء الأميرين في باريس بداية انطلاق عبقرى لأحمد شوق الذي وجد في
شكيب أرسلان ما يجده الفنان العظيم حين يلتقي هو وفنان عظيم ، وبذلك على
ذلك كلمة الإهداء التي كتبها أحمد شوق على نسخة ديوانه التي أهداها لصاحبه ،
فقد كتب عليها :

« إلى أميرى وأخى شكيب أرسلان »

(٢٧ مارس ١٩٠٠)

وعندما التقيا في باريس كان شوقي يحمل معه ديوان المتنبي . وارتسمت في خيال شكيب أرسلان صورة الشاعرين الأعظمين عند العرب : المتنبي وشوقي ، حتى إن شكيب قال في رثاء شوقي :

ولكم مررت بحاسدين لفضله رغم القلى يروون من أبياته
وهي الصورة التي قالها المتنبي عن نفسه ، حين جعل الدهر بعض رواته .
إن لقاء باريس بين الأميرين هو أخطر لقاء في حياة شوقي ؛ فقد تعرض أمير الشعراء لحسد الحاسدين - ونقمة الناقين - وشنوا ضده حربا شعواء ، واتخذت منه بعض المجلات المصرية فيا بعد مادة للإثارة . حتى قيل : إنه كان ينفق الأموال لإسكات بعض الصحفيين والكتاب الذين يهاجمونه .

وقد ذكر الدكتور محمد صبرى السوربوني صاحب كتاب (الشوقيات المجهولة) أنه التقى هو وشوقي في فرنسا ، وطلب منه أن يجلس معه ، ويحدثه عن حياته ؛ ليصدر عنه كتاباً ؛ فقال له شوقي :

- عايز كام ؟

وعند ذلك انقطع الحديث بين الدكتور صبرى وبين شوقي .
ولذلك كان لقاء باريس حدثاً هاماً في حياة شوقي ، لأنه التقى هو وشكيب وهما في سن متقاربة . وكان شوقي في بدايات بلوغه ، فإذا قال له شكيب أرسلان :

- أنت أمير الشعراء .

إن هذا الاعتراف المبكر من كاتب موهوب لشاعر موهوب يصبح شيئاً خطيراً في تشكيل شخصية الشاعر .

وهناك شيء آخر يجمع بين الأميرين ، وهو الثقافة الفرنسية التي أخذها معا من نبع واحد ؛ ثم أصبحا معا يملكان ناصية العربية الفصحى ، كما كانا يملكان

ناصية الفرنسية الرفيعة .

وشكيب أرسلان من كبار المترجمين العرب للأدب الفرنسى ، وقد كان من المعجبين بأناتول فرانس ، فترجم كتابه الشهير (أناتول فرانس فى مبادله) كما نقل رواية (شاتوبريان) التى سماها (آخرى سراج) إلى العربية فى أسلوب رائع بديع .

وقد ذكرت لك أنه كان من كبار العارفين لأسرار العربية إلى جانب معرفته العميقة للغة الفرنسية ، فكان يترجم من الفرنسية إلى العربية بغير عناء .

وشكيب أرسلان من أبناء المدرسة اللغوية العربية فى العصر الحديث ، فقد أخذ عن أستاذه عبد الله البستاني ؛ كما صحب كبار العلماء من أمثال الأب أنستاسى مارى الكرملى والشيخ عبد القادر المغربى . وكذلك صحب (سعيد الحورى الشرتونى) صاحب قاموس (أقرب الموارد) ، وهو من أهم المعاجم اللغوية الحديثة .

وأنا أحدثك هذا الحديث لأن (شكيب أرسلان) التقي لقاء آخر وشوقى ، كان خطيراً مثل لقاء باريس : فقد تصدى الشيخ إبراهيم اليازجى صاحب مجلة البيان التى كان يصدرها فى القاهرة لرواية شوقى (عذراء الهند) وكتب فصلاً كاملاً فى مجلته تعقب فيه الشاعر فى جملة وألفاظه ، وهلهله ، وقال : إن هذه الجملة والألفاظ لاتجيزها اللغة العربية الفصحى .

كان الشيخ اليازجى يريد إسقاط شوقى .

وإبراهيم اليازجى عالم لغوى مارونى لبنانى ، هاجر إلى مصر ، وأصدر مجلتيْن هما (البيان) و (الضياء) ، وقد سبقته شهرته إلى القاهرة ، وكان محققاً مدققاً ، له صيت فى علوم اللغة ، فإذا قال : إن (أحمد شوقى) يخطئ فى اللغة ، فإن معنى ذلك سقوط الشاعر .

ثم دخل شكيب أرسلان المعركة ، ورد على اليازجى ، وقال : إن الألفاظ

التي استخدمها شوقي عربية فصيحة ، وأشهدَ بأبيات من شعر الجاهليين وغيرهم ،
ثم تعرض لكتاب كان أصدره اليازجي تحت عنوان (لغة الجرائد) فنقده ،
وفنده . وأظهر أخطاءه . وقال إن اليازجي متعنت .

وثار اليازجي على الشاب شكيب أرسلان ، وأجابه بلهجة قاسية . ودخل
الشيخ رشيد رضا المعركة ، وكان قد أنشأ مجلة (المنار) في القاهرة .

وكان اليازجي يقول : إن كلمة (دعاية) غير صحيحة ، فرد عليه الشيخ
رشيد رضا قائلاً : إنها وردت في كتاب النبي عليه الصلاة والسلام إلى هرقل ملك
الروم ، حين قال له : (أدعوك بدعاية الإسلام) ، فألجم اليازجي ولم يستطع
الرد .

وعندما سقطت دعاية اليازجي ضد شوقي لم يستطع أحد بعده أن ينال من قدر
أمير الشعراء . وكان الأمير شكيب أرسلان أمير البيان هو السبب في رد السهام عن
شاعر العربية الأكبر في هذا العصر :

كثيرون أرادوا تحطيم شوقي :

طلاب مال ومنافع ، وطلاب شهرة ، وحاقدون حاسدون . . وأنماط كثيرة
كثيرة لاحصر لها ، والله أعلم بنواياها .

ولكن خطورة إبراهيم اليازجي كانت شديدة على أمير الشعراء . ولو أنه نجح في
حملته لاستطاع إسقاط شوقي .

الشاعر لا يعرف اللغة !

هذه مصيبة لاراد لها . . فإذا بقي لأمير الشعر العربي بعد هذا ؟

المادة التي يصنع منها فنه الشعرى مجهولة له ، ولا يعرفها ، ويخطئ في
استخدامها .

ومن الذي يقول هذا ؟

الشيخ إبراهيم اليازجي علم أعلام اللغة في عصره ، والذي جعل نفسه رقيباً لغوياً لكل ما ينشر في الصحافة المصرية ، فيخطئه ويخطئ كاتبه . ولكن الكاتب الصحفي لا يقل مقداره إذا أخطأ في اللغة ، بل إن بعض الكتاب كانوا يتندرون باليازجي ، ولا يهمهم أن يكونوا مخطئين . ولكن «شوق» أمير الشعراء يخطئ في استخدام اللغة ! لقد تدخل شكيب أرسلان ؛ لأنه أحس بأن هناك مؤامرة تحاك ضد شوق . وقد جذبوا لها إبراهيم اليازجي ، ليكون في كلمته فصل الخطاب . ولم يتعرض اليازجي لقصائد شوق حتى لا يتلقى صفة مثل صفة المتنبي التي وجهها لعالم اللغة في عصره (ابن جني) ، فإن الشاعر يملك حرية استخدام اللغة مادام يملكها .

وقال المتنبي في صلفه وغروره !

وما الدهر إلا من رواة قصائدى !

وقال شكيب أرسلان : إن (شوق) مثل المتنبي يروى الدهر قصائده ، والحاسدون الناقون يروون من أبيات أمير الشعراء !

كان المتنبي يحطم بكلماته قواعد النحو المتعارف عليها بين النحاة ؛ لأنه كان يعرف من أسرار العربية أكثر مما يعرفه النحاة ، وهو الذي كان يملك اللغة ولا تملكه اللغة .

اللغة ليست هي الكتاب . . ولكنها حياة .

ذات يوم كتب الدكتور (زكي مبارك) مقالاً في جريدة البلاغ عن هذا الموضوع ، وأورد في مقاله بيتاً من الشعر الجاهلي قال قائله :

إن أباهـا وأبـا أباهـا قد بلغـا في المجد غايـتاها

فصحـح له المصحـح بيت الشعر بما يعرفه من قواعد النحو ، وجعله :

إن أباهما وأبا أبيها قد بلغا في المجد غاياتها
ولم ينم زكي مبارك ليلته حتى طلع الصباح : لأن المصحح ضيع عليه ما أراد
أن يقوله من أن قواعد النحو التي وضعها (الخليل بن أحمد) لا تنطبق على أساليب
شعراء العرب انطباقاً كاملاً .

وعندما أهل الصباح جاء الدكتور زكي مبارك إلى جريدة البلاغ ، وبحث عن
المصحح وضره بعصاه !

وزكي مبارك واحد من عشاق شوقي .

أما شكيب أرسلان فقد كان من أكابر العارفين بقدر أمير الشعراء منذ النضال في
باريس على عهد الصبا والشباب ، وقد ألف أمير البيان كتابه الشهير عن :
« شوقي .. صداقة أربعين عاماً »

وإذا كان شكيب أرسلان قد نصب (شوقي) أميراً للشعراء على مائدة مقهى في
باريس قبل أن يبايعه شعراء العرب بالإمارة - فإن هذا الحادث ليس هو الأهم في
شخصية شكيب أرسلان وعلاقتها بشوقي ؛ لأن أهم حادث هو تصدى أرسلان
للحجة اللغوي إبراهيم اليازجي عندما أراد تخليط شوقي ، واستعانة أرسلان بالشيخ
رشيد رضا صاحب مجلة المنار وصديق شكيب أرسلان ، وتلميذ محمد عبده ..
وكلاهما تلميذ للأستاذ الإمام .

هذه قضية خطيرة في حياة شوقي أمير الشعراء .

لم يكن في استطاعة شوقي الرد على إبراهيم اليازجي ، ولم يكن في مصر أحد
يتقدم لمنازلة اليازجي ، بل إن معظم المجلات كانت تهاجم أمير الشعراء ، وتطرب
لهجوم اليازجي عليه .

وكانت هذه الحادثة هي التي كونت عند شوقي عقدة الصحافة ، حتى إنه
صادق رؤساء تحرير الصحف ، وكان يمر على مكاتبهم كل ليلة قبل عودته إلى

داره . بل إنه هو الذى منح السيدة روز اليوسف مكاناً في أملاكه ؛ لتجعله مقراً لجريدتها .

كان شوقي صديقاً لجبرائيل تقلا صاحب الأهرام ، وعندما مات رثاه بقصيدة من عيون شعره . وقال فيها قوله السائر كالأمثال :

مات رجل والرجال قليل

وكان صديقاً لداود بركات رئيس تحرير الأهرام ، وناشر قصائد شوقي في الصفحة الأولى للمرة الأولى والأخيرة في تاريخ الصحافة المصرية .

وكان صديقاً لتوفيق دياب صاحب جريدة الجهاد الذى أمضى معه شهرته الأخيرة ، قبل عودته إلى كرمه ابن هانئ ليلقى لحظة اللقاء مع الموت . ولكن لقاء أحمد شوقي مع شكيب أرسلان كان لقاء أميرين .

حتى في إهداء الشوقيات الأولى إلى شكيب أرسلان ، قال له شوقي كلمة : أميرى .

وكان شكيب يقول لشوقي أيضاً : أميرى
هذا هو أدب الأدب .

وسنظل سنوات طويلة نبحث عن أمير بيان ، أو عن أمير شعراء ولكن ...

هل الأدب الرفيع سليل بيئة رفيعة ؟

شكيب أرسلان أمير عرى صميم من سلالة الملك النعمان بن المنذر الذى كان مدحه الشاعر العربى النابغة الذبياني ، وكان شكيب شديد الاهتمام بأنسابه وأحسابه ، وقد سجلها ، وحققها ونشرها على الناس . وكان خلال رحلته الطويلة للعريضة يحمل لقب الأمير الذى منحه لنفسه عن طريق النسب الشامخ : كما كان جداده وآباؤه يحملونه من قبل ، وهو لقب موروث وغير ممنوح ، ووالده هو الأمير

حمود أرسلان . وما زالت الإمارة في بيتهم حتى الآن في بلدة الشويقات في لبنان .
أما أحمد شوقي المختلط الدم فقد نال لقب الإمارة من السلطان عبد الحميد
سلطان آل عثمان ، عندما منحه لقب (أفندي) العثماني ، فلم يستطع خديوى مصر
عباس حلمي منحه لقب الباشوية ، لأن لقب (أفندي) كان أعلى من لقب
(باشا) عند سلاطين آل عثمان وولاتهم ، ومنهم خديوى مصر عباس حلمي .
وكان شوقي قد ولد في العز والرفاهية والترف بباب إسماعيل خديوى مصر ،
وأصبح ربيب البيت الخديوى ، وجدته اليونانية (تراز) من وصيفات القصر .
ثم أصبحت القضية عربية عبقرية .

عملاقان يتلاقيان ، أمير شعراء وأمير بيان ، وتجمع بينهما لغة القرآن .
قال لى واحد من الصحفيين الذين عرفوا (أحمد شوقي) ، ولازموه : إنه كان
لا يشرب الخمر في رمضان ، وقد كان في الإسكندرية بصطاف ودخل رمضان ،
وكان شوقي صائماً ، وجاءه بعض مستأجرى أملاكه وأراضيه يسددون الحساب ،
فجلسوا معه في بعض المحال العامة ، وكانوا مفطرين ، فشرب بعضهم القهوة ،
وشرب بعضهم الخمر ، فامتعض شوقي ، ولكنه سكت على عادته في الأدب ، ولم
يمنع عنهم ما يطلبون حتى انتهى شهر رمضان ، وجلس شوقي في مكانه المفضل ،
وقال قصيدته الذائعة التي كتب فيها البيت :

رمضان ولّى هاتها ياساقى مشتاقة تسعى إلى مشتاق !
كان احترام شوقي للإسلام عظيماً ، حتى أصبح شاعر الإسلام ، والمفوات
والسقطات لا تسقط كلمة إيمان راسخ ، وطلب المغفرة أحسن من ذكر الذنوب .
وقد طلب المغفرة على ذنوبه .

البشر لا يملكون المغفرة لخطايا البشر ، ولكن الذى يملكها هو الواحد الأحد .
ولنا حساب وعقاب ، وقد طلب شوقي من ربه المغفرة ، واعترف بالذنوب .

وهل جل ذنب شوقي عن الغفران ؟
إنه شاعر الإسلام وصدى لصوت القرآن .
وكل هذا الحديث سببه شكيب أرسلان الذى أثار القضية .. إمارة الشعر ..
وإمارة البيان .

أردت أن أحدثك عن الأدب عندما يصبح مثل الماس ، أو اللؤلؤ المنضود ،
أو قلادة حسناء مثل عنقود .

إن أرفع الأدب وأمتع هو أدب القادرين لا أدب العاجزين . وقد تستمتع
بأدب الرعاع برهة ، ولكن أدب العارفين لأصول الأدب تستمتع به كل برهة .
وليس فى الأدب برجوازية ، ولا سوقية ؛ لأنه الفن الأرفع ، يعطيه من يقدر
فيتمتع .

والأدب ليس هو الأمير ، وليس هو السوق الحقيقى ، ولكنه أمير فوق كل أمير .
كان أحمد شوقي أميراً بهذه الصفة ، ولذلك كان أمير الشعراء .
وكان شكيب أرسلان أميراً بالميراث ، فنسى إمارة الميراث واكتسب لنفسه
إمارة البيان ، وأحب هذا القلب الجديد الذى التصق باسمه .

والقضية فى جوهرها هى قضية الإمارة للأدب ، لا قضية الإمارة بالنسب ،
وقد استطاع أمير البيان شكيب أرسلان ، وأمير الشعراء أحمد شوقي ، وضع
الخطوط الأساسية لها فى مفهوم الفن .

وخلال فترات الصراع السياسى استطاع الأميران وضع أساس التفكير الفنى ،
وكان المفهوم الأول هو : الفن للحياة ، وليس للملك أو السلطان ، وهو ليس
للاتزلاق إلى مهاوى الأيديولوجيات القديمة أو الجديدة .
الفن للحياة .

هذه هى الفكرة الأساسية للفنان الحى القادر على بعث الحياة ، أو صنع

الحياة ، ولذلك أصبح شوقي هو شاعر الشعب مع أنه كان شاعر الأمير أو الملك .
وهذه إحدى المفارقات في فهم الفن .

كيف يصبح شاعر الأمير هو نفسه شاعر الشعب ؟
إن الفن أعلى قدراً ، وأعظم أثراً ، وأقدر اقتداراً من كل سلطة . ولكن الفن
ليس هو السوقية على كل حال ؛ لأنه أرفع من السوقية ، وأشدّ علواً من كل سلطة
عالية .

وعندما التقى أمير البيان وأمير الشعراء حدث لقاء الفن لإمارة الفن . وكان تأثير
شكيب أرسلان في شخصية شوقي هو تأثير إمارة الفن .
كان كتاب شكيب أرسلان :

شوقي أو صداقة أربعين سنة - قصة الدفاع عن إمارة الفن والأدب والشعر .
كان شكيب في دفاعه عن مدائح شوقي للملوك دفاعاً عن نفسه ، لا عن
شوقي ، وقد تحدث عن عفة الشاعر الذي يمدح الملك وهو الملك .
وأعظم رؤية في هذا الكتاب الفريد هي المقارنة بين المتنبي وشوقي .. وكأنه
أراد أن يقول : إن (أحمد شوقي) هو متنبي عصرنا .
الوفاء والحب والإعظام لأمر الشعر هي كلمة شكيب أرسلان ، وهي نغمته
الدائمة .

أليس هو الذي نصبه أميراً للشعراء قبل أن ينطق أحد بهذه الكلمة ؟
ومع ذلك خلع طه حسين إمارة الشعر من فوق كتفي شوقي ، وحاول أن يضعها
على كتفي العقاد !
ثم عجز طه حسين .. وعجز عباس محمود العقاد ، وظل شوقي أميراً للشعراء !

٦ - شاعر النيل حافظ إبراهيم

لم تشهد القاهرة شاعراً أطرف من حافظ إبراهيم ؛ فقد كان يتنقل مثل النسيم ،
ومعه الشاعر الصعلوك (إمام العبد) من قهوة إلى قهوة ، ومن حانة إلى حانة ،
ليحكى الحكايات ويروى الروايات ويقول النكت اللاذعة الباردة .
وقد نسى الناس الشاعر (إمام العبد) . لأنه مسكين .. ومن يسأل عن
المساكين ؟

سبق في يؤسه وشقائه الشاعر (عبد الحميد الديب) وقد تعلم الظرف وخفة
الدم من أستاذه البائس الأكبر حافظ إبراهيم . ولكن شاعر النيل كان مثل الجمل
يحمل ، ولا يشكو . ويضحك في أحلك لحظات الظلام والإظلام والظلم .
كان حافظ إبراهيم قوة من القوى المحركة للمجتمع المصرى ، بل للمجتمع
العربى كله برغم كل ظروفه ، ومعاناته ، وبأسائه ؛ وكانت قدرته على مواجهة

الظروف خارقة للعادة .

يملك كل شيء وهو لا يملك شيئاً !

الذى يملك الكلمة يستطيع أن يملك الدنيا ولم يكن في جيبه مليم واحد .
أحمر ! وحافظ واحد من القلة القليلة التى امتلكت الكلمة .

هو الذى صاح فى وجه إسماعيل باشا صدق رئيس الوزارة الطاغية بقصيدته
الدائعة :

قد مر عام ياسعاد وعام وابن الكنانة فى حياه يضام !
فهز السلطة بالكلمة الشاعرة . وجعل (إسماعيل صدق) يتقل على الجمر .
وظل حافظ إبراهيم شاعر النيل هو الشخصية القادرة على الضحك والسخرية .
حتى لو فقد رزقه القليل وهو الذى ينفق ما يكسب على الشعراء المغمورين من
البائسين !

إن شخصية حافظ إبراهيم من الشخصيات النادرة فى تاريخ الأدب المصرى ؛
لأنه يمثل التحدى فى وجه كل شيء ، إلا وجه الواحد الأحد الفرد الصمد . وكانت
تحديات حافظ إبراهيم أعظم مما يتحمله المجتمع المصرى فى عصره ؛ فقد كان
الضابط الشاعر الشاب تلميذ محمد عبده هو المتحدى للاستعمار البريطانى فى
السودان عندما كان ضابطاً صغيراً ناشئاً ، ثم عاد إلى مصر مطروداً من الجيش ،
ليلتقى هو وأمير الثوار محمود سامى البارودى . وكان اللقاء مثيراً عاصفاً بعد عودة
البارودى الفارس الشاعر من المنفى وقد من عليه خديو مصر عباس حلمى براتب
شهري يرسله إليه أول كل شهر فى ظرف مغلق يضم أربعين جنيهاً ،

وفى أول لقاء بين البارودى وحافظ قدم الفارس محمود سامى البارودى باشا ،
ظرف معاشه لحافظ إبراهيم ، ليعيش البارودى باشا شهراً كاملاً بلا قرش واحد من
أجل أن يعيش حافظ إبراهيم حياته الصاخبة فى يوم واحد ، أو لحظة واحدة !

عاش حافظ إبراهيم حياته بالطول والعرض . وملاً الدنيا بالضحكات
والبسمات ، وسط جو قائم مملوء بالفزع والضياح ، ووقف بقامته الفارعة يتحدى
الزمن وهو الذى أغلقت فى وجهه أبواب الرزق ، وفتحت أبواب العبقريه .
كان شوقى فى قمة الثروة والرخاء والرفاهية على حين كان حافظ فى قاع الفقر
والحاجة والبؤس حتى بعد أن منح رتبة البكوية وعين وكيلاً لدار الكتب !
وظل البؤس ملازماً لحافظ حتى بعد موته ؛ فقد دفن فى مقبرة مجهولة منفردة
فى عرض الطريق ؛ حتى أنقذ محمود باشا صدق محافظ القاهرة فى عهد الملك فؤاد
رفات شاعر النيل ، وأنشأ له مقبرة لائقة فى قراقة السيدة نفيسة الجديدة بالقاهرة ،
ولكن أحداً من الشعراء والأدباء لم يعرف مكان هذه المقبرة الجديدة التى توشك أن
تهدم بسبب الإهمال ، ولأن أحداً لا يزورها فى المواسم والأعياد على عادة
المصريين ، وليس لها حارس يحرسها من الضياع !

وعندما أقامت وزارة الثقافة أمسية شعرية لحافظ إبراهيم لم تفكر فى وضع
إكليل من الزهور على مقبرة الشاعر ؛ لأنها لاتعرف مكانها . ولاتسأل الذين
يعرفون ! . وأعتقد أننا يجب أن نضع تقاليد لتكريم العباقر فى بلادنا .
لقد كان أول حفل جامعة (مارتن لوثر) فى مدينة (هالة) الألمانية الشرقية ،
عندما احتفلت بذكرى مرور مائة عام على مولد المستشرق الكبير (كارل بروكلمان)
هو أنها أخذتنا إلى مقبرة العالم الكبير ، الذى أحاطت به باقات الزهور .
إن مقبرة حافظ إبراهيم فى قراقة السيدة نفيسة الجديدة هى أول مقبرة أقامتها
الدولة لتكريم عبقري فذ من عباقر مصر .

وعندما مات طه حسين لم يجدوا له قبراً يدفن فيه ، وقد سارع المهندس عثمان
أحمد عثمان إلى إنشاء مقبرة فى البساتين على مقربة من الإمام الشافعى ، لعميد
الأدب العربى . كما أقامت الدولة مقبرة لعباس محمود العقاد فى أسوان .

أريد أن أقول لك إن مقابر العظماء هي متاحف الحضارة ، وقد شاهدت مقبرة (جوته وشيلر) في مدينة فايمار الألمانية الشرقية ، وهي مقبرة عريقة قديمة ، تنفق على نفسها من بيع تذكارات وكتب وصور الشعراء ليعرفوا الناس معنى الحياة والخلود في الأدب .

لست أدري لماذا دفعني حافظ إبراهيم إلى هذا الحديث ؟

البؤس

وكم ذا بمصر من المضحكات : كما قال فيها أبو الطيب !

هذه كلمة حافظ إبراهيم مترجم رواية البؤساء لشاعر فرنسا فيكتور هوجو .

ولماذا ترجم حافظ رواية البؤساء بالذات ؟

شاعر النيل الذي ملأ الدنيا بالضحكات كان بائساً ، وكان تابعه الدائم هو

الشاعر البائس إمام العبد ، وهو شاعر أسود الوجه ، كان حافظ يتندر بسواده في الليالي السوداء .

ذات يوم جاءه إمام العبد ، وكان الصيف قاتظاً شديد الحرارة ولم يضع العبد

رباط عنق حول قيصه ، فظهرت رقبته السوداء ، وبادره حافظ قائلاً

— أنت لابس كرافتة سودة ليه يا إمام مين مات لك ؟

وعندما ذهب إلى الإسكندرية معاً نزل إمام العبد ليستحم في البحر ، ثم خرج

من الماء ، متجهاً إلى أستاذه حافظ إبراهيم الذي صاح ضاحكاً

— سوداني ومملح !

وكان إمام العبد من الشعراء الظرفاء . ولكن شعره ضاع وسط زحمة العباقرة

في عصره ، بل إن اسمه اختفى من تاريخ الأدب المصري الحديث ، ولم يعد أحد يذكره

وبرغم كل الظروف استطاع حافظ إبراهيم بعبقريته الفذة أن يسير مع أحمد

شوق على درب واحد . واشتهر في الأدب العربي الحديث شاعران متلازمان حافظ وشوق .

وكان حافظ يقول في مجالسه :

- إن اسم حافظ وشوق أصبح مثل نداء الباعة .. سميظ ويبيض ! واستمر هذا خمسين عاماً .

كان لقاء القمة مع لقاء القاع ، وهذه إحدى عجائب مصر : فقد حدث لقاء مشابه في الشعر الألماني ، عندما التقى (يوهان ولفجانج جوته) و (فردريش شيللر) ولكنه كان لقاء قبة : فإن الوزير جوته عندما أقام بيته العريق الأنيق في مدينة (فايمار) ، أصر على بناء بيت مثله ، وعلى مقربة منه للشاعر المتمرد (شيللر) ، وكان (جوته) يتحمل كل هجمات وطعنات (شيللر) تلميذه وزميله ، من أجل عيون الشعر العبقري . وعندما أقيم مسرح (فايمار) وضع أمامه في الميدان تمثالاً واحداً للشاعرين المتعاقبين في ظل ربة الشعر والجمال ، كما دُفنا معاً في مقبرة واحدة كما قلت لك .

ولكن الموقف مع شوق وحافظ كان مختلفاً أشد الاختلاف : فقد ظل شوق في القمة ، وظل حافظ في القاع ، ورغم الاعتراف الكامل بالعبقريتين ، حتى من طه حسين ، صاحب كتاب (حافظ وشوق) الذي شطح فيه ونطح ! ولم يكن منصفاً للعبقرية الشعرية التي قلما يجود بها الزمان .. وقد ظهر في عصر شوق وحافظ كوكبة من الشعراء قسّمهم (مصطفى صادق الرافعي) إلى عشر طبقات ، في إحدى مقالاته التي نشرها في مجلة (المقتطف) وجعل أحمد شوقى من الطبقة العاشرة بين شعراء العصر . وهذا يدل على أن شوق كان يغيظ كل الشعراء حتى وضعه الرافعي في ذيل قائمته العجيبة الغريبة ، ولكن الرافعي خاف في توقيع مقاله . ووقع بإمضاء مستعار .

ولكن هذه الصور المهزوزة لم تستطع أن تهز قيمة شوقي وحافظ ، وظلا معاً مثل (السميط والبيض !) كما قال حافظ إبراهيم .

نحن لانعلم كيف ومتى بدأ الاتصال بين حافظ وشوقي ، لأن تاريخ الأدب المصرى لم يسجله أحد تسجيلاً علمياً ، ونحن نحاول الوصول إلى خيوطه الضائعة وسط الظلام .. وكلمة من هنا وكلمة من هناك .

عندما أعلنت الحماية على مصر عام ١٩١٤ ، وعزل الحديو عباس حلمى ، وولى الإنجليز السلطان (حسين كامل) سلطاناً على مصر قال شوقي قصيدته الخطيرة :

| | |
|------------------------------|-----------------------------|
| الله يشهد ما كفرت صنيعه | فى ذا المقام ولا جحدت جميلا |
| والله يعلم أن قلبى موجه | وجعاً كداء الثاكلات دخيلا |
| مِمَّا أصاب الناس فى أبنائهم | ووهى الهلال ممالكاً وقبيلا |
| أأخون إسماعيل فى أبنائه | ولقد ولدت بباب إسماعيل؟ |

وقال شوقي فى هذه القصيدة :

وانفض ملعبه وشاهده على أن الرواية لم تتم فصولا
فضحك حافظ ، عندما سمع القصيدة وقال :
- هذه مقالة ، وليست قصيدة !

وفعلاً كانت هذه القصيدة مقالة سياسية خطيرة ، وهى من الشعر السهل الممتنع . وقد نفى شوقي من مصر ، ورحل إلى الأندلس بسبب هذه القصيدة . ولكن (شوقي وحافظ) تعارفا قبل ذلك بسنوات ، فقد كتب شوقي مقطوعة فى تقرير ديوان حافظ عند صدوره . وقال فيها :

ياحافظ الآداب والبطل الذى يرجى ليوم فى البلاد عصيب
ولكن الصراع بين الشاعرين كان عظيماً .

قال شوقي في إحدى قصائده التي مدح بها مولاه الخديو عباس حلمي :
مولاي عبدك طائع فافعل به ما أنت فاعل
وقيل لحافظ :

- أي بيت من الشعر تفتخر به ؟ فقال :

ويايـدُ ما كَلَفْتُكَ البسَطَ مرةً لدى منة ، أولى الجميل وأنما !
ثم اشتهر حافظ إبراهيم في مصر بعد حادثة دنشواي بأنه شاعر الوطنية ومشهر
دنشواي في البرية . وكان شوقي في أعماق نفسه شديد الإعجاب بحافظ وشعره
الوطني ، ولكن لم يستطع خلال فترة التصاق اسمه بأمر البلاد أن يعلن ذلك
صراحة .

ومن الحوادث الطريفة أن المعتمد البريطاني في مصر (السير ألدن جورست)
سافر إلى السودان في يناير ١٩٠٨ ، وكان قد تولى بعد عزل لورد كرومر سفاح
دنشواي ، ونشرت الصحف أن جورست اصطاد سمكة وزنها ٥٢ رطلاً ، ثم
جذبها إلى البر بعد جهاد دام ساعتين إلا ربع الساعة ، فكتب حافظ مقطوعة ،
تحت عنوان (شهيدة الخرطوم) ونشرها في جريدة الظاهر يوم ٤ من يناير ١٩٠٨ ،
قال فيها :

قال الحمام معزياً في النيل أنواع السمك

عام البنادق قد مضى : ولقد أتى عام الشبك !

فالسعد لي ، والفرح لي : والأمن لي ، والويل لك !

وفي ٣١ يناير ١٩٠٨ نشرت (الجريدة الأسبوعية) مقطوعة لشوقي ، قال

فيها :

غورست رب السمكه ، ذاك بشير البركه

سحبته بالرفق فهي أمة ممتلكه

إن كنت قد خطفتها ، ولم تزل في حركه
ابعث لسلطان ومطران بها مشتركة
فإنها مصلحة للمعد المرتبكه
كلاهما معدته تأخذ شكل الشبكة

وهناك معارضات كثيرة بين شوقى وحافظ . ولكن المشكلة التي تواجهها هي أن
شوقى لم ينشر نشرأً علمياً بحيث تعرف تواريخ قصائده ومناسباتها . ولكن شعر
حافظ نشر نشرأً علمياً ، مع أن الديوانين غير كاملين ، وهناك قصائد ومقطوعات
كثيرة ضاعت منها ، ولم تنشر .

عندما كان شوقى في المنفى لم يرغب عن خاطره حافظ إبراهيم : ففي عام ١٩١٧
عرض داود بركات رئيس تحرير الأهرام على حافظ إبراهيم ثلاثة أبيات وردت
باسمه في كتاب من أمير الشعراء أحمد شوقى إلى جريدة الأهرام ، وكان عنوان
أبيات شوقى : (من الغائب إلى المقيم) وهو يقول فيها :

ياساكنى مصر إنا لا نزال على عهد الوفاء - وإن غبنا - مقيمينا
هلاً بعثم لنا من ماء نهركم شيئاً نبل به أحشاء صاديننا !
كل المناهل بعد النيل آسنة ما أبعد النيل إلا عن أمانينا !
وكتب حافظ ردأً على رسالة شوقى ، تحت عنوان : (من المقيم إلى الغائب)
وقال فيها :

عجبت للنيل يدرى أن بلبله صايد ويسقى رباً مصرٍ ويسقىنا
والله ما طاب للأصحاب مورده ولا ارتضوا بعده من عيشكم لنا
لم تنأ عنه - وإن فارقت شاطئه وقد نأينا - وإن كنا مقيمينا
وأنت ترى في هاتين المقطوعتين : كيف تلاقت روحا الشاعرين في أعظم لقاء
عاطفى دافئ ، من النادر أن تجده في الشعر العربى ؟

وكان العبقريان يعرف كل واحد منهما قيمة صاحبه . وعندما كان شوقى في قمة الغنى والثراء وحافظ في قاع الفقر والحاجة لم نسمع أن حافظاً احتاج لمساعدة شوقى ، أو أن شوقى حاول مساعدة حافظ .

كان الشاعر الأكبر الفارس محمود سامى البارودى يقول :

خلقت عيوفاً لا أرى لابن حرة على يدا أغضى لها حين يغضب
وكان الشاعر الفارس الآخر حافظ إبراهيم يقول :

ويايد ماكلفتك البسط مرة لذى منة ، أولى الجميل وأنما !
كلاهما يدور حول معنى واحد . ولكن بيت البارودى أبلغ وأعظم من بيت حافظ .

وكان سعد زغلول يتمثل بهذا البيت من شعر البارودى في خطبه الرنانة ، ويعيده ويستعيده وينغمه ، فيلهب أحاسيس الجماهير .

ولكن .. ما أثر حافظ إبراهيم في حياة شوقى الشعرية ؟ إن المنافسة تخلق أجواء العبقرية . وكانت المنافسة بين الشاعرين ممتدة حتى وفاة حافظ الذى رثاه شوقى براءة من روائعه يقول في مطلعها :

قد كنت أوتر أن تقول رثائى يامنصف الموتى من الأحياء
وهذا هو الاعتراف الشعرى بالعبقرية الواحدة التى لا تتجزأ . فإن شوقى لم تكن من أمنياته أن يرثيه شاعر آخر غير حافظ إبراهيم . وكان فى مصر وفى بلاد العرب عشرات الشعراء على مختلف المستويات والطبقات فى الشعر .

عندما تلقى شوقى نبأ وفاة حافظ كان يصطاف فى الإسكندرية وكان يختار الجلوس بالقهوة التجارية ؛ ليستوحى الأمواج . فقرأ فى جريدة البلاغ أن حافظاً مات ، فغام وجهه ، وأنشأ أعظم قصيدة قالها فى الرثاء
ووددت لو أنى فداك من الردى والكاذبون المرجفون فدائى

الناطقون عن الضغينة والهوى الموغرو الموتى على الأحياء
من كل هدام وبينى مجده بكرائم الأنقاض والأشلاء
ما حطموك وإنما بك حطموا من ذا . يحطم رفرف الجوزاء
انظر فأت كأمس شأنك باذخ فى الشرق واسمك أرفع الأسماء
كان لقاء شوقى بحافظ أعظم لقاء للشعر العربى فى العصر الحديث .

وفى سنة ١٩٢٧ ، أقيمت حفلة فى دار الأوبرا لتكريم شوقى ، والمناداة به أميراً
للشعراء بصفة رسمية ، وحضر الحفلة وفود من شعراء البلاد العربية .

وعندما وقف حافظ ليلقى قصيدته قال فى مطلعها :

أمير القوافى قد أتيتُ مبيعاً وهذى وفود الشرق قد بايعت معى
وثب شوقى من مقعده ، وقبل حافظاً على خديه .

كانت هناك فوارق بين حياة شوقى وحياة حافظ ، وهى شديدة الشبه بالفوارق
بين جوته وشيللر . فقد كان جوته وشوقى من الأغنياء وكان شيللر وحافظ من
الفقراء . ولكن آلهة العبقرية لاتعرف الغنى والفقر . وقد عرف عن شوقى أنه كان
يستحم بالكولونيا ، ولايستحم بالماء على حين كان يحلو لحافظ أن يعيش حياة أبناء
البلد ، فيرتدى الجلالية والمعطف فى غالب الأحيان ، ولا يرتدى البذلة إلا فى
المناسبات ، وكان ينتقل فى القاهرة على عربات الترام بالدرجة الثانية ، عندما كان
أجر الركوب ستة مليات . وقد روى هو بنفسه ما حدث له عندما داس بقدمه على
قدم أحد الركاب ، وكان ذلك فى شهر أغسطس ، فقال له الراكب :

— حاسب ! (إنت مش عارف أنا مين) ؟

فرد عليه حافظ ضاحكاً :

— عارف .. راکب فى الترام بالدرجة الثانية فى شهر أغسطس .. تبقى مين ؟

وكانت لحافظ حوادث كثيرة تبين لنا طريقته فى الحياة ، ومزاجه وهو مغاير

لشوقى فى كل شىء .

لم تكن لشوقى شلة من الأصدقاء ؛ ولكنه كان يستقبل ضيوفه فى قصره استقبالات شبه رسمية : فى حفلات شائى ، أو أمسيات نكوكتيل ، أو عشاء ، كما كان يستقبل بعض الأدباء والصحفيين فى مكتبه . أو يجلس مع بعض أصدقائه فى المحال الراقية . وكان قليل الكلام . سارحاً فى ملكوت الله .

أما حافظ فقد كانت له أكثر من شلة . وكان صاحب أحاديث باهرة ، ونكت رائعة رويت عنه ، ولكنها لم تسجل . وكان يشاركه فى النكت والتنكيت الشيخ عبد العزيز البشرى ومحمد البابلي . وكان ثلاثتهم فى جيلهم فرسان الفكاهة . الأدباء يعرفون عبد العزيز البشرى ، واسمه رنان عند قراء العربية ، ولكن محمد البابلي .. قليلون يعرفونه ، وهو ابن عبده بك البابلي الذى كان جواهرجى العائلة الخديوية فى عصر الخديو إسماعيل . وقد تخرج محمد البابلي فى مدرسة البوليس ، واشتغل ضابط شرطة لمدة قصيرة ، ثم عاش للأدب والفن حتى أفنى ثروته الطائلة .

كان الثلاثة الظرفاء يسكنون حلوان حين كانت مجمع الأغنياء والأعيان والأدباء .

هذا هو الجو الذى كان يعيش فيه حافظ إبراهيم .. جو المرح والفكاهة والنكتة - على خلاف شوقى الذى كان يعيش حياة القصور ، وله نظام فى حياته ، وصفه الدكتور زكى مبارك ، وكان قريباً منه فقال :

كان مدمناً على التدخين ، وكان يضع السيجارة فى مسم من الكهرمان ، وما رأيت به بدون سيجارة ، وكان يشرب الشائى من وقت إلى وقت ، وكان مغرمًا بأكل البيض . كان يأكله نيئاً عند نظم الشعر .

ولم يكن شوقى يستحم بالماء كما يستحم الناس ، وإنما يستحم بالكولونيا .

وكانت خادمتها هي زوجته وتقدر مواعيده الغالية . ولم يكن شوقي يفطر في البيت ، وإنما يمضى مع الشروق . فيفطر في مطعم صولت بشارع بولاق واسمه اليوم شارع قواد .

وكان مفتوناً بشرب الويسكى ، ولم يكن يشربه إلا بعد منتصف الليل في البيت .

وكان من عادة شوقي أن يتناول عشاءه في مطعم من المطاعم الفاخرة في القاهرة .

أما حافظ إبراهيم فقد كان بوهيمياً منطلقاً . فلا بيت ولا زوجة ولا أولاد ! ولا علاقات عائلية وليس له نظام في حياته إلا مع أصدقائه . وأشهرهم . محمد البابلي ومحمد المويلحي وعبد العزيز البشري وصادق رستم وبيرم التونسي وعبد الله سليمان أباطة . والشئ الذي يسترعى النظر هو أن بيرم التونسي كان من شلة حافظ إبراهيم . فإن أحداً من دارسى أدب بيرم لم يعرف هذه الحقيقة . وقد عثرت على مقطوعة لحافظ لم تنشر ، يقول فيها عندما رثى عبد الله أباطة :

| | |
|-------------------------|-----------------------------|
| كن على عهد الصبا سبعة . | بمستطاب اللهو نستأثر |
| البابلي صفوة فتياننا | وابن المويلحي الكاتب الأشهر |
| وصادق خير بني سيد | وبيرم إذ عوده أخضر |
| وكان عبد الله أنساً لنا | وأنس عبد الله لا ينكر |
| فكم لنا في مجلس طيب | يشтаقه هارون أو جعفر ! |
| نلعب باللفظ كما نشتهي | ونضمر المعنى فما يظهر |
| ونرسل النكتة محبوكة | من غيرنا في الحسن لاتصدر ! |

إن البقاد المدرسين لا يستطيعون فهم تأثير حافظ في شوقي ، وقد أكد تعاقب السنين والأيام أن الشعارين (حافظ وشوقي) ، وصلا إلى الخلود الأدبي برغم كل

ما كتب عنها من انتقاد ، لانقد .

إن ربة الشعر الملهمة لاتعترف بآراء طه حسين والعقاد والمازنى فى شعر شوقى حين هاجموه ، ولا رأيهم فى شعر حافظ حين جاملوه ؛ لأن الفن فوق الهجوم والمجاملة .

فأقول لك الحق :

كان حافظ إبراهيم شاعر النيل من العوامل المؤثرة فى تفجير شاعرية شوقى ، بل إنه كان من أخطر العوامل . ولا تجوز لنا المقارنة التافهة حول الصور الشعرية . والتركيبات اللفظية بين شاعرين من العباقرة ، وليس لنا أن نتلمس السقطات والهفوات عندما ندخل المحراب الأقدس الذى تنطلق فيه الكلمة :

ألم يقل شوقى فى رثاء حافظ :

ما حطموك ، وإنما بك حطموا من ذا يحطم رفرف الجوزاء ؟
انظر فأنت كأمس شأنك باذخ فى الشرق واسمك أرفع الأسماء !
كان هذا هو لقاء العبقرية بين أمير الشعراء ، وبين شاعر النيل ، وسيظل هذا اللقاء دائماً عبر الأجيال .

٧ - الدكتور محمد حسين هيكل

من رأى الدكتور طه حسين أن (هيكل) عندما قدم ديوان البارودى ، وديوان الشوقيات كان من المعجبين بهذين الشاعرين ، ولكنه لم يكن يستطيع أن ينشئ أدباً كالذى ينشئه هذا أو ذاك .

لماذا ؟

لأن (هيكل) - كما يرى طه حسين - كان يعيش فى عصره ، وكان البارودى وشوق يعيشان فى عصور مضت . فى عصر المتنبي وأبى تمام وأبى نواس ومسلم بن الوليد ، وربما عاش البارودى فى العصر الجاهلى أو فى العصر الإسلامى . ويكمل طه حسين تصويره ، فيقول : إن (هيكل) كان يعيش بيننا . ويعيش فى هذه الأحداث الخطيرة التى عشناها واصطلينا بناها . هذا الزعم من طه حسين ليس صواباً ، بل إنه يتجنى على البارودى وشوق

معاً ، فقد عاشا مثله هذه الأحداث الخطيرة ، واصطلياً بنارها أكثر مما اصطلى هو .
البارودى هو شاعر مصر خلال الثورة العرابية ، وقد أنصفه الدكتور هيكل
حين قدم ديوانه للناس . وقال عنه :

« ونحن نحاول اليوم أن نتلمس الجديد فى شعر البارودى ، ونقصد بالجديد ما
أبدع من أغراض لم تكن مطروقة فى عهد الأولين ممن بعث لفنهم وشعرهم ، وما
كانت ذاتيته قوية واضحة فيه ، وما يتصل بالحاضر مما جعله الشعر الأوربى من
أغراضه . فيأخذ بالبابنا ما فى ديوانه من الشعر السياسى . ومن وصف الطبيعة
المصرية والآثار المصرية ، والحياة المصرية ، أما ما خلا ذلك فلم يعد البارودى فيه
مقاصد المتقدمين من شعراء العرب ، ولم يعد أوزانهم وقوافيهم وأغراضهم » .
وكانت رسالة البارودى - كما يقول الدكتور هيكل - هى بعث الشعر العربى
من مرقده ، وتمزيق الأكفان التى احتوته مئات السنين . وما وفق له البارودى من
هذا البعث الجديد لا يزال حتى اليوم أعظم تجديد تم فى حياة الشعر العربى منذ
نهض البارودى به ، لا يقرن إليه إلا ما وفق له شوقى حين وضع مسرحياته الشعرية
الخالدة : مجنون ليل ومصرع كليوباترا وما إليهما .

ولذلك فإن الدكتور (هيكل) لم يعجب بالبارودى وشوقى عبثاً ، بل كان
يعرف قيمة شعرهما فى الحياة المعاصرة . ولم يكن فى استطاعته أن ينشئ أدباً مثل
أدهما كما طالبه الدكتور طه حسين ، لأن (هيكل) ليس شاعراً .
كان طه حسين يرى فى البارودى وشوقى رأياً متعصباً ، يلجئه فى بعض الأحيان
إلى الخروج عن منهجه فى النقد . بل إن تصوره لشعر الملاحم عند اليونان ،
وإعجابه بوحدة القصيدة فى الشعر الأوربى ، جعله شديد التجنى على الشاعرين
الكبيرين .

ولكن (طه حسين) لم يطبق نظريته فى الشعر على أبى العلاء ، بل كان يهتز

طرباً كلما أنشد نظماً سخيلاً من اللزوميات العلائية .

والحقيقة هي أن (طه حسين) لم يكن أول ناقد عربى عقد المقارنات بين شعر الملاحم اليونانية ، وشعر القصائد العربية : فقد سبقه إلى ذلك سليمان البستاني مترجم الإلياذة هوميروس من اليونانية إلى العربية . فقد تعلم البستاني اللغة اليونانية القديمة وأتقنها قبل ترجمة الإلياذة . وقد مكنته ظروفه الثقافية والوظيفية من الاشتغال بالأعمال الأدبية العظيمة : فهو من دوحة الأسرة البستانية الشهيرة بالعلم والأدب في لبنان . وكان وزيراً في الدولة العثمانية ، بل إنه كان أول وزير عربى في دولة الخلافة في إسطنبول . وقد كتب سليمان البستاني مقدمة لترجمة الإلياذة تعتبر أول نص نقدى علمى في الآداب العربية الحديثة . وقد تحدث عن شعر الملاحم وعن وحدة القصيدة . وعن وحدة البيت الواحد من الشعر ، أو شطر البيت . وعندما تحدث طه حسين عن هذه الموضوعات اعتقدنا أنه يقدم لنا جديداً لم نكن نعرفه من قبل . وكان رأيه في شعر شوقي هو ما قدمته إليك بكلماته في إيجاز . ذكر الدكتور (زكى مبارك) أن (شوقي) طلب إليه كتابة مقدمة أدبية للشوقيات في طبعها الجديدة التي صدرت عام ١٩٢٦ ، فأحجم عن ذلك واعتذر . ثم حدث صديقه (طه حسين) بذلك عندما كانت بينهما صداقة ، فقال له طه حسين : إنه من الشرف للكاتب أن يقدم الشوقيات ، وإن شوقي لو طلب منه ذلك ماتردد لحظة واحدة .

وكان (زكى مبارك) عيوفاً أنوفاً شديد التأثير بكل ما يدور حوله ، ولذلك اعتقد في قرارة نفسه أنه لو كتب مقدمة للشوقيات لقال الناس عنه : إنه أخذ مالا من شوقي ، فقد كان أمير الشعراء كثير الهبات والصلوات ، وكان يشتري الأفلام حتى لاتهاجمه ، على طريقة الخديويين والملوك والحكام ، فامتنع عن كتابة المقدمة برغم حبه الشديد لشوقي ، حتى إنه ظل القلم الذى لم يهاجمه قط ، ولم ينتقص من

قدر شعره ، بل إنه كان داعية دعاة عبقريته .

ولكن .. ماقصة الدكتور هيكل مع شوقي ؟

للتاريخ يجب أن نذكر أن الدكتور (هيكل) كتب المقدمة للشوقيات عام ١٩٢٦/٢٥ ، ثم كتب المقدمة لديوان البارودى بعد ذلك بسنوات ، حيث طبع الديوان عام ١٩٥٢ ، ولكن قرار طبعه كان قد صدر قبل ذلك عندما كان محمود فهمى النقراشى وزيراً للمعارف^(١) . ونحن لانعرف متى كتب هيكل مقدمته لديوان البارودى على وجه التحديد ؟ وهذا لايهم كثيراً ، بل إن الملاحظة الهامة هي أن الدكتور (هيكل) قدم البارودى بعد شوقي .

ولم يكن هيكل من نقاد الشعر ، ولعله لم يتعرض فى كتاباته الكثيرة للشعر والشعراء خلال أى عصر من عصور الأدب . وعندما كتب مقدمة الشوقيات كان غارقاً فى السياسة حتى أذنيه ، فقد رشحته الأحزاب المختلفة خلال تلك السنة للانتخابات فى دائرة الجبلية بالقاهرة ، وأيد سعد زغلول هذا الترشيح ، مع أن (هيكل) كان رئيساً لتحرير جريدة السياسة لسان حال حزب الأحرار الدستوريين .

كما أن شوقي لم تكن له صلات بحزب الأحرار الدستوريين ، بل كانت له صلات بالوفد ، وخلال رحلة لسعد زغلول على ظهر الباخرة محاسن إلى بعض بلاد مديرية الجيزة فى مايو ١٩٢٦ - دار حديث حول مائدة الغذاء يوم ٦ من مايو بين محمود فهمى النقراشى والدكتور محجوب ثابت فى حضرة سعد زغلول عن شوقي وحافظ إبراهيم . وكان النقراشى يذيع أن الدكتور (محجوب ثابت) يحسد أمير

(١) تولى محمود فهمى النقراشى وزارة المعارف مرة واحدة من ١٨ أغسطس ١٩٣٩ إلى ٢٧ من يونيو ١٩٤٠ فى وزارة على ماهر باشا وبذلك فإن قرار طبع ديوان البارودى يكون قد صدر خلال هذه الفترة أى أن الدكتور كتب مقدمته بعد كتابة مقدمة الشوقيات بسنوات .

الشعراء بسبب حفلات التكريم التي تقام له . ولم تكن هذه الأحاديث جادة ، بل كانت مفاخرات يقصد بها الترفيه عن سعد زغلول وإسعاده ؛ فقد كان يحس بوطأة المرض . ويشعر باقتراب النهاية . ولم يجد أصفياؤه شيئاً يرفه عنه خيراً من الشعر . وكان الفارسان في الميدان هما (شوق وحافظ) .

ولكن (حافظ . إبراهيم) كان أشد قرباً لسعد زغلول من شوق . بل إنه كان ملازماً لبيت الأمة ، وله قصائده في مظاهرة السيدات خلال ثورة ١٩١٩ وغيرها من القصائد التي مال بها إلى الوفد .

ويبدو أن (سعد زغلول) كان أشد ميلاً إلى شوق ، كما كان من عشاق البارودي ، وكان يُشهدُ بأشعاره في خطبه الرنانة . وعندما حدثت جفوة بين سعد وشوق تدخل الشيخ عبد الرحمن الجديلي في الأمر ، حتى ذهب زعيم الأمة إلى كرمة ابن هاني ، وصالح أمير الشعراء . ونشرت لها صورة فوتوغرافية على صدور الصحف .

. وشوق هو الذي رثى (سعد زغلول) بقصيدة لم يكتب مثلها في الشعر العربي ، وقال في مطلعها :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها . وانثنى الشرق عليها فبكاهها
ثم ظل شوق على حبه للوفد حتى الليلة الأخيرة من حياته ، حيث مر على صديقه توفيق دياب صاحب جريدة الجهاد كبرى جرائد الوفد في ذلك الزمان . وكان توفيق دياب واحداً من المترنمين بشعر شوق في المحافل والحفلات ، لأنه كان من كبار الخطباء أصحاب الأصوات الرنانة ، والوقفات والقفلات التي تحجب إليك الشعر ، وتحبك في الشعر .

في ذلك العصر كان الذين يترنمون بشعر شوق مثل عشاق أم كلثوم ، فهم سميعة يتذوقون الشعر .

ولكن القدر شاء أن يكون الدكتور هيكل (الحرّ دستوري) هو كاتب مقدمة الشوقيات .

إن الموضوع ليس سياسياً كما نتوهم ، ولكنه موضوع أدبي فيه جانب من السياسة وقد كان شوقي يعامل السياسة منذ نشأته حتى آخر لحظات حياته . ونحن لانعرف كيف تم اللقاء بينه وبين الدكتور هيكل ؟ ولا كيف كتب هيكل مقدمة الشوقيات ؟ وما الدوافع التي دفعته إلى ذلك ؟

الطبعة الأولى من الشوقيات كتب شوقي بنفسه مقدمتها ، وكان في إمكانه أن يعيد نشرها مع ديوانه . أو يعدلها ويهذبها كما يشاء ، بل إنه لم يكن في حاجة إلى كاتب يقدمه في شوقياته للناس . فقد أصبح أشهر من الشهرة . ولكنه عندما كتب قصيدته (نهج البردة) طلب من محمد المويلحي سيد كتاب عصره أن يقدمها للناس ، كما طلب من الشيخ سليم البشري شيخ الإسلام أن يشرحها للناس ، ثم طبعها في كتاب ، وقدمها هدية لمولاه الخديو عباس حلمي في مناسبة حججه إلى بيت الله الحرام .

هل هي روح العصر في التقديم والتقريب ؟

كان شوقي نفسه يقوم بهذه الأعمال الفنية العجيبة ، وليس هذا غريباً في الآداب العالمية ، فقد كان (جورج برنارد شو) يكتب مقدمات لبعض الكتب ، ومنها كتاب للشاعر الإنجليزي الصعلوك (دافيز) صاحب كتاب (حياة شخصية لصعلوك عظيم) ومنها كتاب (أعمدة الحكمة السبعة) للبريطاني الشهير (لورانس) صاحب المغامرات في جزيرة العرب وسيناء والقاهرة .

اشترك أمير الشعراء والدكتور هيكل في تقديم كتاب صغير ، لا يعرفه أحد ، وهو نظم شعري لكتاب (كليلة ودمنة) لابن المقفع ، وكان ناظمه هو الشيخ (محمد عبد الرحيم تره) الذي اشتغل مدرساً للغة العربية في بعض المدارس

بمحافظة الغربية .

ومقطوعة شوقي المنشورة في هذا الكتاب من الشوقيات المجهولة ، ويقول فيها
بيان ابن المقفع عاد شعراً وفصل بالحقيقة والصواب
أتى عبد الرحيم به فصولاً روائع في التماور والخطاب
شوائق كالربا تحت الغواوى روائق كاليانيع العذاب
تطوف عليك من كرم القوافى ألد من الغناء على الشراب
أما الدكتور هيكل فقد كتب مقدمة للكتاب الذى توفى صاحبه عام ١٩٣١ ،
ووضح وجهة نظره فى الفن ، وقال : إن كتاب ابن المقفع قطعة من الأدب ،
نقلت من النثر إلى الشعر ، وكان يتمنى أن تزين بالصور . وضرب مثلاً بأقاصيص
(أيسوب) اليونانية التى نقلها (لافونتين) إلى شعر فرنسى بديع .
إن لقاء شوقي وهيكل على صفحتين متقابلتين من هذا الكتاب الذى لا يذكره
أحد له دلالة خاصة فى عالم الأدب ، وهى دلالة العظمة الشخصية التى تحفل
بالرغبة فى إيقاظ النفوس الهامدة ؛ والمشاعر الجامدة نحو الحركة من أجل الحياة .
أمير الشعراء وكاتب عظيم يقدمان كتاباً يضم منظومات مصنوعة ، لانسوى
شيئاً فى تيار الحياة الأدبية ، ومؤلفه مدرس فى إحدى مدارس المحلة الكبرى .
هذا هو مقياس العظمة الشخصية عند هؤلاء العباقرة الكبار الذين يقبلون
ولا يرفضون ، ويشجعون ولا يقتلون ، والحياة الأدبية بعد ذلك لا تقوى ،
ولا تزدهر إلا حين نسمع كلمة الأمل .
لقد التقى هيكل وشوقي فى لقاء العظمة الشخصية ، ولم تكن بينهما مصالح ،
ولا صداقات ، ولا عداوات .

أين (لافونتين) من الشيخ محمد عبد الرحيم تره ؟
ولكن الدكتور (هيكل) كمتقف عظيم ينه الأذهان إلى أن كل حرف يكتبه

كاتب أو ينظمه شاعر يجب أن نقدره حق قدره حتى لو كان هيناً يسيراً ، الكلمة أساس الحياة .

لقد كان اختيار شوق للدكتور هيكل في كتابة مقدمة الشوقيات ، اختياراً ينم عن الذوق الرفيع ، والفهم الواعي ، لأن (هيكل) عرف بالرزق والهدوء النفسى مع البراعة والدقة فى الأسلوب . وكان قد استرعى الأنظار عندما بدأ فى نشر تراجم بعض الشخصيات المصرية والأوربية ، التى جمعها فى كتابه (تراجم مصرية وغربية) وسلك فى كتابة هذه التراجم طريقة وأسلوباً لم يعرفه كتاب العرب من قبل . فهو يعرض شخصياته ويحللها بطريقة علمية داخل إطار الأسلوب الأدبى . كان فى كتابة التراجم عند العرب من الفتون التى تنحو إلى التقرير ورواية التواريخ والأحداث فى أسلوب جامد .

فلان ولد فى عام كذا ، وتوفى فى عام كذا .

ثم أصبحت هذه التراجم تحمل اسم (الوفيات) منذ ألف ابن خلكان كتابه الشهير (وفيات الأعيان) ، وتابعه الكتاب فى طريقته حتى أيام الجبرى :

أما تراجم الأدباء والشعراء فقد كانت نوعاً من أخبارهم ، وهى تخالف الكتابات التى كتبها بعض النقاد الذين اهتموا بالعمل الأدبى ، وأهلوا ترجمة حياة الشاعر أو الأديب .

ولكن الدكتور (هيكل) كتب التراجم بطريقة عصرية جديدة ، فيها إيجاز وبهر ، وفيها تعريف بالشخصية داخل تحليلها . ويبدو أن (شوق) أعجب بهذه الطريقة فترك لصديقه كتابة مقدمة شوقياته .

غير أن (شوق) كان صديقاً للدكتور طه حسين أيضاً ، وكان يدعو إلى بيته ، بل إنها كانوا يصطافان معاً فى لبنان خلال بعض السنوات ، وكان طه حسين لامعاً فى سماء الأدب العربى .

فلماذا لم يطلب إليه شوقي كتابة المقدمة ؟

يبدو أن ذكاء شوقي كان يوصله إلى معرفة رأى طه حسين في شعره . ولو أن هذا الرأى لم يظهر فى وضوح إلا بعد سنوات فى كتاب (حافظ وشوقي) الذى أصدره طه حسين .

لم ير طه حسين أن (شوقي) يحدد الشعر العربى ، بل كان يعتقد أنه شاعر يعيش فى الماضى ، وسبب ذلك أن (طه حسين) ظل طوال حياته ناقداً هجوماً . بد حياته النقدية بمهاجمة مصطفى لطفى المنفلوطى ، ثم هاجم (مصطفى صادق الرافعى) . ثم نصب العقاد أميراً للشعراء وهاجمه بعد ذلك وسخر من عبقرياته وقال : إنه لم يفهم كتاب (عبقرية عمر) ، وكان فى مجالسه الخاصة يتندر بعبقرية خالد ، ويقول : إن العقاد جعل من خطط خالد بن الوليد العسكرية ما هو أعظم شأنًا من خطط بوناپرت أو هندنبرج ؛ وفى السنوات الأخيرة هاجم كل الكتاب ما عدا (توفيق الحكيم) . ولم يعجبه استهانتهم باللغة .

إن آراء طه حسين النقدية لا يضمها خيط واحد ، وله عذر فى ذلك ؛ فقد كان أستاذاً كبيراً يجب أن نستمع إليه . كما كان غضوباً ينفر من مناقشة آرائه ، وهو الذى يدعو إلى حرية الرأى .

ولكنه كان يتمنى أن يكتب مقدمة الشوقيات كما قال الدكتور زكى مبارك . وقد قرأ طه حسين ما قاله زكى مبارك فلم يعترض عليه ، ولم يصدر عنه ما يننى رواية زكى مبارك .

وهناك سبب آخر جعل أمير الشعراء لا يفكر فى طه حسين كاتباً لمقدمة شوقياته ، وهو اتهام طه حسين عام ١٩٢٦ بالكفر والزندقة بعد صدور كتابه (فى الشعر الجاهلى) وما ثار فى مصر حين ذاك من آراء متعارضة حول موقف الأديب الكبير . لم يبق أمام شوقي غير الدكتور هيكل ؛ فهو كاتب كبير شهير ، يليق اسمه بأن

يوضع في صدر الشوقيات . وأنت تعلم أن أمير الشعراء كان شديد الاهتمام بالمظاهر ، بحكم نشأته وظروفه . كشاعر للقصر . وكان قد استكتب (محمد المويلحي) مقدمة لقصيدة واحدة من قصائده هي نهج البردة ، عندما كان .. يلحى أشهر كاتب في مصر .

إن تحليل الدكتور هيكل لشخصية شوقي وشعره ، من أمتع ما كتبه الكتاب عن قى ؛ ولم يكن إعجابه بأمير الشعراء إعجاباً بلا سبب ؛ فقد كان إعجاباً بالشعر ، الإعجاب بالشاعر .

لقد وقف الدكتور هيكل بحسه الفنى المرهف عند القصائد الخالدة لشوقي وهى تغنت بها أم كلثوم .

• ريم على القاع بين البان والعلم

• ولدى الهدى فالكائنات ضياء

• سلوا قلبى غداة سلا وتابا

كيف التقط الدكتور هيكل هذه القصائد من الشوقيات ؟

كيف التفت إليها فى براعة وذكاء . ومعرفه ؟

هذا هو السر الذى جمع بين شوقى وهىكل ..

وسبحان من يعرف الأسرار فى نفوس البشر !

أما أسباب صداقة الدكتور هيكل بأمير الشعراء فلها قصة : فقد كانت جريدة

أهرام تنشر قصائد شوقى فى صدر صفحاتها ، وتسميه (أمير الشعراء غير منازع

لإمداف) فاحتالت جريدة السياسة على نشر قصائد شوقى ، وكان الدكتور هيكل

وصاحب الحيلة ، فأعلنت أنها تقدم خمسين جنهماً إلى الجمعية الخيرية الإسلامية

، كل مرة تنشر فيها قصيدة من قصائد شوقى .

ورأى شوقى أمام هذه الحيلة البارة أن لا مفر من أن يختص جريدة السياسة

بأشعاره ، فانتقلت قصائده من الأهرام إلى السياسة ، وتوثقت صداقته بالدكتور هيكل رئيس تحرير السياسة .

ولكن الذى حدث بين هيكل وشوقى بعد صدور الشوقيات كان حدثاً من الأحداث التى تروى : فقد أعلن عن احتفال يقام بدار الأوبرا تحت رعاية الزعيم سعد زغلول لتكريم شوقى ، والمناداة به رسمياً أميراً للشعراء .

وأقيم الحفل فى التاسع والعشرين من أبريل عام ١٩٢٧ ، وحضره أدباء العرب من أقطارهم كافة وبايعوا (شوقى) بإمارة الشعر . ورأى الدكتور هيكل من واجبه أن يصدر عدداً خاصاً من (السياسة الأسبوعية) لتكريم شوقى .

ورأى شوقى من حقه أن ينظر فى محتويات ذلك العدد .

وكانت (السياسة الأسبوعية) فى تلك الأيام توجه التيار الأدبى فى مصر وفى سائر البلاد العربية ، وكان إصدار عدد خاص عن شاعر فى مثل تلك المجلة يعد تزكية أدبية تفوق الوصف . ولكن (شوقى) لم يرتح كل الارتياح إلى ذلك العدد الخاص ؛ فقد ظهرت عبارات تغضى كثيراً أو قليلاً من أمير الشعراء .

وغضب شوقى على ذلك العدد من السياسة الأسبوعية ، وغضب معه بعض المرتزقة من أدعياء الأدب ، فهاجموا الدكتور (هيكل) فى الوريقات الصفراء التى كانت تصدر فى مصر حين ذاك ، وتسمى نفسها باسم الصحف والمجلات .

ثم كتب الدكتور هيكل مقالاً شهيراً فى السياسة الأسبوعية كان عنوانه (أخلاق شاعر الأخلاق) وذكر ما كان بينه وبين شوقى ، وتوعده توعداً فظيحاً وقال : إن (شوقى) لن يظفر منه مرة أخرى بمثل ذلك الاحتفال !

انطوت صفحة الصداقة بين شوقى وهيكل .. ولكن ظلت مقدمة هيكل للشوقيات فى مكانها المرموق لا تترحز . ومن خيوط هذه المقدمة ألف المؤلفون كتباً عن شوقى ، فإن كل كلمة فيها توزن بميزان الذهب .

ولكن الدكتور (هيكل) الذى خاصم (شوقى) فى حياته بعد صداقة حميمة لم
يتردد قلمه عن كتابة رسالة طويلة فى جريدة السياسة يرثى بها أمير الشعراء ،
ويتحدث عن ذكرياته معه .
ومعظم الذارسين لشوقى لم يعرفوا هذه الرسالة ، وظنوها كلمة رثاء . مع أنها
دراسة عظيمة عن أمير الشعراء .

٨ - الدكتور زكى مبارك

الدكاترة زكى مبارك .

شخصية محيرة ! مع أننى لم أعرف أدبياً أشد وضوحاً ، وأكثر صراحة ، وأعظم نفساً من هذا المظلوم !

فلاح مصرى استبدل بفأسه القلم ، ثم بدأ يعزق حقول الأدب والفكر ، ويقلب الأرض ، ويزرع الأشجار !

جسورٌ مثل زهران فلاح دنشواى الذى شنقوه ، فرأى فى موته حياة لكل الفلاحين .

عاشق يغنى الموالى الأخضر تحت شجرة جميز عمرها ألف عام ، عند ساقية يدور فيها ثور معصوب العينين ، ويبحث عن بنت فلاحه يشرق وجهها تحت منديل أحمر تتدلى منه حبات خرج النجف فوق جيبتها المرتفع دائماً مثل جبين نفر تارى :

متمرد على الظلم والظالمين ، لا يكف لسانه عن الهجوم والسخرية . ولكنه يضحك ، لأنه طيب القلب . لا يعرف الحقد ، وحياته كلها حب .

وصلة زكى مبارك بشوقى قديمة ؛ فقد تعارفا بعد عودة شوقى من المنفى عام ١٩١٩ ، وكان ذلك فى بيت عبد اللطيف الصوفانى وكيل الحزب الوطنى ، وكان زكى مبارك فى ذلك الوقت رئيساً لتحرير جريدة الأفكار ، وهى إحدى صحف ثورة ١٩١٩ ، وكان مقرها فى شارع قولة بحى عابدين على بعد خطوات من جريدة المقطم .

انتهت هذه المقابلة العابرة .. واعتقل زكى مبارك الشاب الأزهرى الثائر . ثم خرج من المعتقل وهو يتهدد (شوقى) بسبب قصيدته التى قالها عن مشروع ملز لإلغاء الاحتلال البريطانى فى مصر ، واستبداله باتفاق شرعى على الاحتلال . خرج زكى مبارك من المعتقل فى خريف ١٩٢٠ ، فكتب مقالاً فى جريدة المحروسة ينقد فيه قصيدة شوقى عن مشروع ملز ، فغضب الشاعر ، وأضافه إلى خصومه الألداء .

ثم شاء القدر أن يلتقيا مرة أخرى . وسأل زكى مبارك أمير الشعراء عن أسباب كتابته لقصيدة لورد ملز ، فقال له شوقى : إنه كتبها تحت ضغط من مطالبة مصطفى النحاس وعبد اللطيف المكباتى ، وهما من كبار أعضاء الوفد الذى كان يعارض مشروع ملز فى العلن ، ويؤيده فى الخفاء . وهذه هى ألاعيب السياسة التى تخفى وراء الآثار الأدبية . إن أمير الشعراء قد نفاه الإنجليز من مصر بسبب قصيدته التى قال فيها بعد عزل الخديو عباس وتولية السلطان حسين كامل :

وانفض ملعبه وشاهده على أن الرواية لم تتم فصولا
وسارت القصيدة على ألسنة الناس ، ومرت كما تسرى النار فى الهشيم ، مما دعا

السلطة البريطانية إلى إبعاد أمير الشعراء عن مصر .
وكان حافظ إبراهيم قد أثر السلامة ، فهنا السلطان (حسين) الذي ولاه
الإنجليز قائلاً :

ووال الإنجليز فهم رجال من الآداب قد نهلوا وعلّوا !
وعندما عاد أمير الشعراء من المنفى لم يرد أن يتكرر معه ما سبق أن عرفه من النفي
والتشريد ، فكتب قصيدته في تأييد مشروع ملز ، ولامه زكى مبارك على ذلك ،
ثم عرف الحقيقة عندما التقيا لقاء محبباً .

كانت جريدة السياسة التي يرأس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل قد
احتالت كما تقدم على نشر قصائد شوقي التي كانت جريدة الأهرام قد خصت نفسها
بها ، فرصدت خمسين جنيهاً تقدمها هدية للجمعية الخيرية الإسلامية ، عن كل
قصيدة تنشرها لشوقي .

وبدأت الأهرام تغمز أمير الشعراء الذي طار من بين يديها ، فكتب الدكتور
زكى مبارك مقالاً في مجلة الصباح يلوم فيه الأهرام على تصرفها ، وأعجب شوقي
بمقال زكى مبارك ، فدعاه مع حفنة من الأصدقاء إلى الغداء على مائدته ، وتم
بينهما لقاء عظيم . حتى أصبح زكى مبارك صديقاً شخصياً لشوقي ، يزوره في مكتبه
بشارع جلال كل صباح .

وعندما كان شيطان الشعر يلعب بخيال أمير الشعراء لم يكن يرغب في صحبة
أحد معه في جولاته الهائلة غير زكى مبارك .

ذات صباح ، شرب شوقي فنجاناً من الشاي في مكتبه بشارع جلال ، وقدم
لضيوفه بعض قطع (الكرواسان) التي كانت تعد بكميات وافرة ، وهي إحدى
هوايات شوقي ، فيأكل واحدة ، ويقدم لضيوفه منها . وكان زكى مبارك على
عادته يجالس أمير الشعراء الذي وقف فجأة ، وأخذ زكى مبارك في يده ، ثم خرج .

وسارت بها السيارة إلى كوبرى قصر النيل ، ثم نزلوا منها . ووقف شوقى عند سور الكوبرى ، وبدأ يكتب على ظهر علبة السجاير .

من أى عهد فى القرى تندفق ؟ وبأى كف فى المدائن تغدق ؟
ومن السماء نزلت أم فجرت من : عليا الجنان جدولاً تفرق ؟
واستمر يكتب القصيدة الخالدة التى لم يكتب مثلها عن النيل ، والتى غنتها أم كلثوم ، فبعثت فيها خلوداً فوق خلود .

وفجأة انهار أمير الشعراء وتهاوى ، ولم تعد ساقاه تستطيعان حمله ، وقال لزكى مبارك :

- احملنى .

فحمله ، كما يُحمل الطفل ، وعاد به إلى السيارة . ويقول زكى مبارك : إن أحمد شوقى أمير الشعراء طفل ، وإنه أخف فى وزنه من ريش النعام ! وكان شوقى يبكى بكاء الأطفال ، ويغمغم (من أى عهد فى القرى تندفق) .
وكانت المرة الأخرى التى حمل زكى مبارك أمير الشعراء على كتفه هى يوم جنازة شوقى ، فقد تقدم زكى مبارك ، والدكتور أحمد زكى أبو شادى وبعض أعضاء جماعة «أبوللو» الشعرية التى كان شوقى رئيسها ، وحملوا النعش على أكتافهم ، وقال زكى مبارك للمرة الأخرى : إن نعش شوقى كان أخف من ريش النعام !

صحب زكى مبارك أمير الشعراء مدة تزيد على ستين ، وهو يقول :
«عرفت الشاعر معرفة حقيقية ، وكان تحفة فى سلامة الذوق ومناة الأخلاق»

طلب منى أن أكتب مقدمة الشوقيات فاعتذرت بأن المقدمات يراعى التلطف ، وأنا أكره أن أتقيد برأى قد أنكره فيما بعد حين أجد قصيدة ضد

توجب الهجوم عليه . فقال شوقى جملة بالفرنسية معناها : (وأنا لا أفرض أى شىء)

وفى المساء لقيت الدكتور (طه حسين) ، وكان جارى فى مصر الجديدة ، وقصصت عليه مادار بينى وبين شوقى ، فتجههم وجهه وقال :

- يظهر أن رأى فيك لن يتغير يادكتور زكى ، وهو أنك رجل عييط ، أنا خاصمت (شوقى) وخاصمنى وهو يغدق الأموال على كتاب مأجورين يشتمونى فى الجرائد والمجلات ، ولو أنه اقترح أن أكتب مقدمة الديوان لرأيت هذا من التشريف ؛ لأن (شوقى) فى رأى هو أعظم شعراء اللغة العربية بعد المتنبى .
فقلت :

- أنا أرى أنه أشعر من المتنبى

فقال الدكتور طه :

- مادام هذا رأيك فما الذى منع من أن تكتب المقدمة ؟

فقلت :

- لأحتفظ بحق فى نقده حين يخطئ

فقال الدكتور طه :

- إن (شوقى) لا يخطئ !

قلت لك : إن (زكى مبارك) رجل محير ، لا تعرف آخره من أوله ، كما يقول

العامة برغم وضوحه الظاهر ، وطيبة قلبه ، وشجاعته وبراعته .

إنه يقول :

« كان حافظ أذكى من شوقى بمراحل طوال ، وأشعر منه بلا جدال ، وسيقول

التاريخ : ما أقول بعد زمن أو أزمان » .

ونحن لنعلم بأى مقياس من مقاييس النقد ، قال الدكتور زكى مبارك هذا

الرأى ، فإن (حافظ إبراهيم) نفسه اعترف لشوقه بإمارة الشعر ، وقال فى حفل تنصيب أمير الشعراء :

أمير القوافى قد أتيت مباحياً : وهذى وفود الشرق قد بايعت معى
ولكن الدكاترة (زكى مبارك) ، وهو من أكابر العلماء الأدباء الظرفاء - كانت له شطحات فى بعض الأحيان .

وقد كان حافظ إبراهيم رئيساً له فى القسم الأدبى بدار الكتب المصرية عندما اشتغل بها فترة من فترات حياته الممزقة ، وكان حافظ يعرض عليه قصائده ليرى ما فيها من أخطاء قبل نشرها ، ولكن (زكى مبارك) عجز عن وجود هذه الأخطاء ؛ لأن (حافظ) كان مثل شوق لا يخطئ .

ولكن (زكى مبارك) كان يرى أن أسباب لمعان شوق ووصوله إلى إمارة الشعر هى : المال والفراغ والعبقرية . وقد امتلكها أمير الشعراء . أما حافظ فلا مال ولا فراغ ، ولكنه امتلك العبقرية ، وليس الفراغ هو فراغ الوقت ، ولكنه فراغ السعادة والحياة المنيئة الرغد .

ونظرية زكى مبارك لا أساس لها فى مفهوم النبوغ الأدبى ، فقد عاش المتنبي شريداً طريداً ، باحثاً عن المجد ؛ حتى قتل وهو يحمل على جواده أكياس الذهب .

ونحن لانستطيع أن نقول : إن (حافظ) كان أكثر ذكاءً من شوق ، إلا إذا كان الذكاء هو القدرة الكلامية ، أو إطلاق النكت ، أو التفوق على أفكار العامة وأشباههم فى المجادلات . وهذه إحدى ميزات حافظ إبراهيم .

إن مقياس الذكاء هو القدرة على المعرفة . وليس هناك شك فى أن (شوق) كان أكثر معرفة من حافظ ، وكان عقله الباطن أكثر استيعاباً من عقله الظاهر ، حتى فى المعارف العربية واللغوية . ودع عنك معرفته للحضارة الأوربية وآدابها وفنونها .

لقد عجب الدكتور هيكل عندما سأل (شوقي) عن كتاب يوازي في نظره كتب الآداب الأوربية ، فقال له أمير الشعراء : إنه كتاب (الوسيلة الأدبية) للشيخ المرصفي ، فطالع الدكتور هيكل هذا الكتاب ولم يستطع الاستفادة منه ، لأن ثقافته لم تمكنه من فهم الآداب العربية على الطريقة الأزهرية ، وهي طريقة لها جذور في حياتنا ، ولا بد من أن تبدأ من البداية . ولم يكن شوقي أزهرياً ، ولكنه عرف الثقافة العربية عن هذه الطرق الصعبة ، عندما تتلمذ على الشيخ المرصفي وحفني ناصف والشيخ زكي سند .

ولولا الذكاء ما استطاع شوقي أن يجمع بين الثقافتين العربية والأوربية . وقد حاول حافظ هذه المحاولة عندما ترجم رواية (البؤساء) لفكتور هوجو ، ولكنها ترجمت له ، فأعاد صياغتها باللغة العربية . ولم يعرف من الآداب الأوربية إلا ما كان يقرؤه مترجماً ، أو يسمعه ممن يعرفون هذه الآداب .

إن ذكاء الشاعر ليس هو ذكاء ابن البلد ، وهناك بين أبناء البلد من هم أشد ذكاء من كبار العباقرة ، إذا كان مفهوم الذكاء هو اللمحات الخاطفة ، والبريق الكلامي .

أما المال فإنه ليس من أسباب النبوغ ، وإلا فإن أصحاب الملايين كان يجب أن يصبحوا من النابغين .

والمشاركة (الوحيدة) بين شوقي وحافظ هي العبقرية على غير خلاف . والعبقرية منحة إلهية لا فضل للإنسان فيها ، تركيبتها بعد ذلك أشياء أخرى مكتسبة ، أو موروثة .

برغم ذلك اعترف زكي مبارك بعبقرية شوقي ، وكانت كتاباته عنه من أعظم الدلائل على هذا الاعتراف . وقد جمعت الأدبية الشاعرة كريمة زكي مبارك ما كتبه والدها عن شوقي في كتاب من أمتع الكتب .

ظل زكى مبارك طوال حياته مؤمناً بعبقريه شوقي ، برغم بعض شطحاته . وهذا أمر لا يستغرب منه ، فقد كان عقله متوهجاً يكاد يشتعل ؛ كما كان حسه المرهف يدفعه في بعض الأحيان إلى كتابة مقالات مشتعلة تطفئ فيها العاطفة على العقل ، وظل هكذا حتى آخر لحظات حياته .

إن تاريخ حياة زكى مبارك مأساة من مآسى الأدب المصرى الحديث . وقد كان يتحدى المأساة بالعزم والصبر والعلم ، وأشد أهوال مأساته أنهم كانوا يحاربونه في رزقه ورزق أولاده ! وكانوا يريدون له أن يجوع حتى يذل ! ولكنه ظل مرفوع الرأس ، وعصاه في يده ، وقلمه في اليد الأخرى .

لوشاء الغنى وهو أقرب المقربين إلى شوقي لاستطاع الوصول ، لا عن طريق الهبات الشوقية التى كان يأنف منها ويرفضها ، ولكن عن طريق النفوذ الشخصى لأمير الشعراء الذى كان يستطيع مخاصمة زعيم الأمة سعد زغلول .

وعندما أقيمت حفلة الأوبرا لتنصيب شوقي أميراً للشعراء وكان رئيس الشرف هو سعد زغلول ، كتب عباس محمود العقاد مقالاً افتتاحياً في جريدة البلاغ ، قال فيه : إن الأمة التى تحتفل بشوقي لا تعرف معنى الكرامة ، فدعاه سعد إليه وقال له :

- كان يجب يا أستاذ أن تلاحظ أن الحفلة تحت رياستي .

فقال العقاد :

- أنت لا تعرف الشعر يا باشا

فقال سعد :

- أنا لا أعرف الشعر ، وإنما أعرف الذوق ، وأحب أن تكون هذه هى آخر

مرة تزور فيها بيت سعد زغلول !

ودعا سعد زغلول الأستاذ عبد القادر حمزة رئيس تحرير البلاغ لزيارته ، وقال

له :

- فى صدر جريدة البلاغ تنشر مقالة فى شتم أمير الشعراء أحمد شوقى ؟
فقال عبد القادر حمزة :

- الشعر للشعراء .. وأنا أبيع لكل كاتب أن يكتب ما شاء .
وكان عبد القادر حمزة من أشد المعجبين بشوقى ، وعندما توفى أمير الشعراء ،
كانت افتتاحية جريدة البلاغ برثية لشوقى ، وقال عبد القادر حمزة :
« لم يكن شوقى شاعراً وكفى ، بل كان مَجْداً لمصر فى عصره كله ، وعصره هذا
يمتد من أخريات عهد إسماعيل باشا إلى اليوم ، فهو يسط جناحيه على نصف قرن
كامل تقلبت فيه على الشعر والأدب أطوار ، منها اللين ومنها العنف ، حتى إذا
عقدت له رياسة الشعر بعد ذلك لم تكن هذه الرياسة مرتبة يرفع إليها ، بل كانت
شهادة بالمرتبة التى وصل إليها .

ولم تقف هذه الرياسة عند حدود مصر ، بل تجاوزتها إلى كل بلد ، فصارت
رياسته بذلك رياسة لمصر ، وصار مجده مجداً لمصر . وقد نبحت فى تاريخ الأدب
العربى كله فلا نجد لوطنتنا من الرياسات فيه إلا القليل النادر ، وقد تكون رياسة
شوقى أكثرها كلها إجماعاً وأشدّها بروزاً » .

وبهذه المقالة رد عبد القادر حمزة على عباس محمود العقاد ، ولكن صاحب
البلاغ كان كاتباً سياسياً ولم يكن من الأدباء . وكانت نظرتة إلى شوقى ترتبط بقيمة
مصر ، ولذلك قال فى مقاله عن أمير الشعراء :

« كان مجده الأدبى مدى خمسين عاماً مجداً لبلاده ، ومجداً للغته ، وسوف يبقى
هذا المجد لاتزيدة الأيام إلا علواً ، ولاتزيد معدنه إلا نصوعاً ما بقى شعر وأدب »
وأنا أذكر لك هذا لأن (زكى مبارك) كان من أكابر كتاب جريدة البلاغ
وهى أول دار صحفية مصرية خالصة ظهرت فى تاريخ الصحافة المصرية ، بناها
وأقام دعائمها حجراً فوق حجر ، وأعد لها آلات الطباعة ذلك العظيم عبد القادر

حمزة باشا .

لقد كتب زكى مبارك على صفحات البلاغ روائع كثيرة عن شوقي ، وكان يخالف العقاد والمازنى - وهما أيضا من كتاب البلاغ - حول شوقي ، ولكن لم تدر بينهم معارك على صفحات الجريدة ، وكان لكل فريق رأيه .

وخلف (دار البلاغ) أنشأ (مصطفى الفشاشي) مؤسسة صحفية أخرى هي (دار الصباح) وكان زكى مبارك من كتاب الصباح عندما كانت أشهر مجلة مصرية ، وأوسعها انتشاراً .

على صفحات الصباح رحيق من قلم الدكتور زكى مبارك عن شوقي الذى قال

عنه :

« لم أسيء يوماً إلى شوقي الشاعر والحمد لله ، وإن كنت بعت حظى مع شوقي الصديق ، وقد عانيت فى سبيل إعجابى بشعره نكبات عديدة ، فإن ناساً كانوا يودون لو هدموه ، ومن أولئك الناس رجال أحترمهم وأرى فيهم مخايل العبقريّة ، ولكنهم أولعوا بالنيل من ذلك الرجل ، وسلكوا إلى هدمه شتى الشعب . وكان الرجل عظيم الشاعرية حقاً ، وكان أصلب من أن تنال منه معاول الهادمين ، فعادوا يتمسحون بأعتاب الخلق والوطنية ، وكانت لهم فى ذلك جولات رسم خطواتها الشيطان .»

والأخلاق والوطنية عكاز يتوكأ عليه كل مغرض حقوق ، وستظل الأخلاق والوطنية دعامة يستند إليها ضعفاء النفوس والعقول مادام أهل الشرق يحسنون الاستماع إلى أدعياء الوطنية والأخلاق .

الخلق لله ، والوطنية لله ، كما أن الدين لله ، فلنترك لشوقي أخلاقه ووطنيته ، ولنتنظر فيما أبدع من آيات الشعر البليغ ، ولنخصص بالذكر شعر الحكمة الرائقة . الكلام مثل جبل الصوف كما يقول الفلاحون فى مصر ، كلما غزله طال ،

وامتد بك حتى الصباح .

الدكتور زكى مبارك هو الأديب الوحيد الذى لم ينصفه الزمان ، وظلمه كثيرون من معاصريه ، وهو الأديب الوحيد الذى أنصف أمير الشعراء عن حب وود ، وتقدير وإعزاز لقيمة الشعر .

أليس يكفى أن يقول لنا ؟

- لتنظر فيما أبدع من آيات الشعر البليغ .

٩ - الدكتور محمد صبرى السوربوى

هذا الرجل كان من أكبر عشاق شوقى .
والدكتور صبرى أستاذ بمعنى الأستاذية الحق ، وقد ظلمته الدنيا ، حتى إنه فى سنواته الأخيرة قبل أن يلقى وجه ربه لم يلتفت أحد إليه ، ثم نشرت عنه بعض المجلات مقالات تعترف بالتقصير فى حقه بعد موته .
كان مؤرخاً أدبياً صاحب قدم راسخة فى التاريخ والأدب على السواء . ومن أعظم أعماله كتاب (الشوقيات المجهولة) الذى طبعه فى جزأين كبيرين ، وجمع فيه ماتشت من أعمال شوقى الأدبية شعراً ونثراً ، مما لم ينشر من قبل فى كتاب .
لقد نبش الدكتور صبرى الصحف والمجلات التى كانت تنشر أعمال شوقى ، واستخرج منها هذا الكتاب الفريد .

إن (شوقى) مازال وسيظل موضع البحث والتزاع بين الأدباء والباحثين ، كما

قلت لك في البداية .

ومن الوقائع الثابتة أن جريدة الأهرام هي التي أذاعت على الملأ لقب شوق (أمير الشعراء) : فقد نشرت له قصيدة في ١٨ من يناير عام ١٩٠٨ ، وصدرته باسمه مقروناً باللقبين وهما :

شاعر الأمير وأمير الشعراء .

والقصيدة التي كتبها شوق ونشرتها الأهرام كانت تهينة للخديو بعيد الأضحى ، وكان شوق هو شاعر الأمير ، أو الشاعر الرسمي للأمير .

ولكن داود بركات رئيس تحرير الأهرام في ذلك العصر كتب يقول :
«لقد يكون في مفاخر حياتي الصحفية أني لقيت (أحمد شوق) بك في سنة ١٨٩٩ على صفحات الأهرام ، وأنا حديث العهد بتحريرها - بأمير الشعراء ووصفت قصائده بالشوقيات ، وكانت الأهرام يومئذ الميدان الوحيد لخياله الراق وكان المرحوم صاحبها بشارة نقلا باشا الذي رثاه شوق بالبيت المشهور الذي ذهب مذهب المثل : رجل مات والرجال قليل .

من أكبر المعجبين بشوق وبشعره وبذكائه وحصافته .

ولكن داود بركات لم يذكر أو يتذكر أن بشارة نقلا عرض على شوق رئاسة تحرير الأهرام بأضعاف راتبه في القصر الخديوي .

ولما ظهر حافظ إبراهيم أطلقت عليه الأهرام لقب شاعر النيل .

ولست أدري من الذي أطلق على خليل مطران لقب شاعر القطرين أي مصر والشام ؟ ثم تلقت بهذا اللقب المغنية (فتحية أحمد) وكانت تسمى باسم مطربة القطرين .

وأنت ترى أن اسم أحمد شوق لمع في مصر والعالم العربي كما ذكر داود بركات ، حتى أصبح أمير الشعراء العرب منذ نهايات القرن التاسع عشر .

وكانت قصائد شوق تنشر في الوقائع الرسمية ، حتى نشر أولى قصائده في

الأهرام في ٣٠ أبريل ١٨٩٢ ، ثم أصبحت هذه القصائد تحتل صدر الجريدة التي منحتها لقب أمير الشعراء ، ومنحها هو أعظم ما يمكن أن تناله جريدة يومية منذ نشأة الصحافة العربية حتى اليوم .

وشوق من عشاق الصحافة ، ولكنه كان من أكبر الخائفين من الصحافة بسبب النقد الذي كان يوجه إلى شعره ، وهو الرقيق الحساس الذي يضيق أشد الضيق بالنقد ، وقد ضايقه بعض زعانف الكتاب حين هاجموه ، وكانوا يبتزون منه الأموال .

لقد كتب شوق شعار جريدة (الجهاد) التي أصدرها صديقه توفيق دياب في الثلاثينيات ، وهو البيت المشهور :

قف دون رأيك في الحياة مجاهداً
إن الحياة عقيدة وجهاد
ولكن الذي أريد أن أحدثك عنه أمر آخر نسبه الذين ألفوا عن أمير الشعراء ، وكتبوا عنه الدراسات والمقالات والكتب : فقد رشح شوق لجائزة نوبل في الآداب عام ١٩٢١ وهي السنة التي نالها فيها (أناطول فرانس) وكان في تلك الفترة من الكتاب المعروفين عند العرب وقد كتب عنه كثيرون من كبار الكتاب ، وألف عنه الأمير شكيب أرسلان الذي كانوا يطلقون عليه لقب أمير البيان كتاباً سماه (أناطول فرانس في مبادئه) .

وهناك ضلات بين شوق وبين شكيب أرسلان وقد التقيا في باريس وقال أرسلان : إنه هو الذي سمى شعر شوق الشوقيات ، على خلاف ما ذكره داود بركات رئيس تحرير الأهرام الذي زعم أنه هو صاحب الاسم .

المهم هو أن الناس يتنازعون حول كل شيء عظيم .
ولكن الأهم هو أن شعراء العرب وكتابهم وأدباءهم بايعوا الشاعر العظيم بإمرة الشعر بعد ذلك ، ولم يتخلف واحد منهم عن مبايعته ، وكان قد حمل لقب

الإمارة فأقروا له .

وقد عجب كثيرون لأن (أحمد شوقي) بك لم يحمل رتبة الباشوية ، وكان هو نفسه يطلب هذا اللقب ، من الخديو عباس حلمي لكتيرين ، حتى اتهموا أمير الشعراء بأنه كان يأخذ سمرة على منح الألقاب خلال فترة حكم عباس حلمي وكان شوقي من خلصائه ونفى بسببه إلى إسبانيا ، بعد أن عزل من الملك وعين الإنجليز السلطان (حسين كامل) بدلاً منه خلال الحرب العالمية الأولى .

لماذا لم ينل شوقي بك رتبة الباشوية ؟

ولماذا لم يمنحه إياها خديو مصر عباس حلمي ؟

في صيف عام ١٨٩٩ سافر شوقي إلى الآستانة عاصمة الخلافة ، وسجل رحلته في سلسلة مقالات نشرتها جريدة المؤيد (أغسطس - سبتمبر ١٨٩٩) تحت عنوان :
- بضعة أيام في عاصمة الإسلام .

وكان شوقي قد قدم الشوقيات إلى مولانا أمير المؤمنين عبد الحميد الثاني ، بمقطوعتين من شعره قال في الأولى :

سلام الله لا أرضى سلامي : فكل تحية دون المقام
وعين من رسول الله ترعى . وتحرس حامل الأمر الجسام
وقال في المقطوعة الأخرى :

إلى ابن محمد أهدى كتابي : وإن الشعر ربحانُ الموالى
وراحة كل ذى ذوق سليم : وما شرب الملوك ولا استعادوا
كهذى الكأس من هذا النديم

وسر السلطان عبد الحميد سروراً عظيماً عندما رفعت إليه الشوقيات ، وأهديت باسمه إليه ، ففتح (أحمد شوقي) بك أرفع ألقاب السلطنة العثمانية ، وهو لقب الأمراء من آل عثمان أبناء السلاطين .. وهذا اللقب هو لقب : أفندي وهو

اللقب نفسه الذى يحمله خديو مصر، وكان يقال له : أفندينا لهذا السبب .
ولذلك لم يكن فى استطاعة الخديو عباس حلمى أن يمنح (أحمد شوقى) لقباً
يقبل عن لقبه الذى منحه له سلطان آل عثمان ، وأنت تعلم أن خديو مصر تابع من
أتباع السلطان العثمانى .

وقد كان بعض معاصرى شوقى يقولون له : أفندينا ، ولكنه كان يفضل أن
يلقب بلقب الباشا حتى لا يغضب الخديو .
أما حكاية جائزة نوبل فإنها قصة أخرى .

لقد نال طاغور شاعر الهند هذه الجائزة عام ١٩١٣ ، ورأى أدباء العرب أن ،
شاعرهم ليس أقل شأنًا من طاغور ، ثم ازداد تنبههم عندما نال (أناتول فرانس)
الجائزة فى سنة ١٩٢١ . فكتب مجلة (الكشكول المصور) فى ديسمبر ١٩٢١ مقالاً
تحت عنوان :

(شعر شوقى وجائزة نوبل .. اقتراح على سليم سركىس)
واقترحت مجلة الكشكول أن يقوم سركىس بمعونة إخوانه وأصدقائه الأدباء
بجمع منتخبات من شعر شوقى وترجمتها ونشرها بين أدباء أوروبا ؛ حتى يعرفوا قدر
أحمد شوقى وعبقريته .

وكتب سليم سركىس مقالاً فى عدد ١٥ من ديسمبر ١٩٢١ من (مجلة
سركىس) قال فيه :

«إن شوقى نفسه لسوء حظ الأدب العربى لا يهتم بشيء مما يهتم له سائر الناس ،
فإنذ نحو عشرين سنة انتشر بيننا ديوان (الشوقيات) ولا أدرى من جمعه وطبعه ؟
ولكنى أعلم أن الإقبال عليه كان عظيماً .
من ذلك الحين نضج شعر شوقى .. ثم إن العشرات من أصحاب المكتبات
والمطابع طالما توسلوا إليه وطلبوا منه بإلحاح أن يسمح لهم بطبع ديوانه الثانى وهو لا يفعل .

ومما أذكره أنه كان عائداً من أوروبا قبل الحرب ، واجتمع في الباخرة وسعيد باشا شقير . وجرى بينهما حديث عن شعر شوقي والسبب في عدم نشره ، فاعتذر شوقي بأنه يحتاج إلى ذى عزيمة ونشاط يرتب الديوان ويقدمه للطبع ويعتني به ، فقال شقير باشا ، إن في سليم سركيس الغنى ، وهو القادر على كل ذلك . روى لى هذا الحديث شوقي نفسه ، فوافقت وعرضت أن أفعل إذا هو دفع إلى قصائده ، فأجعلها في أحسن نسق . وأجمل طبع . مع الشروح اللازمة فشكروا وعد .

وكان ذلك منذ عشر سنوات ، ولا أزال أنتظر فإذا كان شوقي لايهم كل هذا الزمان بنشر ديوانه ، مع علمه بميل الناس ، واستعداد أصحاب المكتبات والمطابع - فكيف ينتظر صاحب الاقتراح أن أكلف أنا نفسى كثيراً في وقى ونشاطى وإلحاحى لأتوسل إلى شوقي أن يساعدنى على قضاء هذه المهمة ؟ وانتهت القضية عند هذه الكلمات التى كتبها سليم سركيس ، ولم يهتم شوقي بالموضوع كله ، ولعله لم يلتفت إليه . فقد كان الشاعر يخلق وحده في السماء ، ويبحث عن قصيدة جديدة .. لا عن جائزة نوبل .

ومازال شعر شوقي حتى اليوم مبعثراً برغم أنه مطبوع في ديوان اسمه الشوقيات . فهناك عشرات القصائد التى كتبها أمير الشعراء ونشرت في الصحف ليس لها وجود في الشوقيات .

وقد جمع الدكتور صبرى هذه القصائد في كتابه (الشوقيات المجهولة) ولكن الشوقيات أعيد طبعها في بيروت كما هى ، ونقلت مصورة عن الطبعة القاهرية . والأمر العجيب أن أمير الشعراء لم يهتم بجمع شعره ، وكان في استطاعته أن يصدر أمراً لسكرتيه الخاص بجمعه وحفظه ، ولكنه كان كثير التردد في ذلك ، وكان في بعض الأحيان يسقط أبياتا من قصائده التى نشرت ، ويعتقد أنها لا ترقى إلى مستوى عبقريته ، ومن حق الشاعر أن ينخل شعره كما يشاء ، ولكن المشكلة

هى أن الشوقيات لم يتم طبعها كاملة إلا بعد وفاة أمير الشعراء .
حدثنى الشاعر محمود أبو الوفا أنه أشرف على إصدار الجزء الثالث من
الشوقيات ، فقد صدر الجزء الأول والثانى فى حياة شوقى وبإشرافه ، وهذا الجزء
الثالث يضم قصائد الرثاء ، ثم استعد لجمع المتفرقات من شعر شوقى لتصدر فى جزء
رابع ، ولكن دخل فى الميدان الأستاذ سعيد العريان ، وأخذ من محمود أبو الوفا
ما كان قد تيسر له جمعه من قصائد ، وأشرف على إصدار الجزء الرابع ، وكتب له
مقدمة اعترف فيها بالعجز والتقصير . ولم يتعب نفسه فى استكمال قصائد أمير الشعراء .

لم تكن لسعيد العريان صلات بشوقى ، ولعله لم يعرفه قط ، ولكن (محمود
أبو الوفا) كان على صلة وثيقة بأمير الشعراء ، حتى إن (شوقى) أقام حفلاً خاصاً
فى مسرح الأزيكية تحت إشرافه لمعاونة الشاعر أبو الوفا . وشوقى هو الذى أذاع اسم
(أبو الوفا) وصنع له الشهرة فى البداية ، ثم جاء محمد عبد الوهاب فلامع الدنيا
بأبيات الشاعر أبو الوفا التى يقول فيها :

عندما يأتى المساء ونجوم الليل تظهر
وهى من أحلى وأعذب أغانى عبد الوهاب .

ولكن سعيد العريان خطف من أبو الوفا الجزء الرابع من الشوقيات .
وهذه الحكاية التى أروىها لك حتى أتعبتك معى كان سببها الدكتور محمد صبرى
السوربوى المسكين الذى تعب سنوات طوالاً حتى جمع ما تفرق من الشوقيات المجهولة .
وكان السوربوى يريد كتابة تاريخ حياة أمير الشعراء ، ويسجل له تواريخ
ومناسبات قصائده ، والأحداث والأسرار التى مرت به ، وقد حدثه فى ذلك .
- يقول الدكتور صبرى :

« أذكر أنى رافقت (شوقى) فى رحلته إلى أوروبا فى صيف ١٩٢٣ ، وكان يفكر
وهو فى باريس فى الذهاب إلى شاطئ البحر فقلت له :

- أريد أن أنتهز هذه الفرصة لتأريخ حياتك وشعرك :

فبادهنى بسؤاله :

- عايز كام ؟

فأجبت :

- مش عايز حاجة !

وانتهى كل شيء .

ولكن الذى حدث مع الدكتور صبرى بعد سنوات طوال كان أعجب من العجب ، فلم يته كل شيء بينه وبين شوقى بعد أن غاب أمير الشعراء عن دنيانا ، بل إن عاشق شوقى حقق بعض ما كان يريده من تقديم أمير الشعراء للناس بأسلوب علمى .

فجمع شتات أعماله المجهولة . ولو قدر للأدب العربى الحديث ما يرفع شأنه ، ويعلى قدره بأمير شعره - لكان الدكتور صبرى السوربوى هو الذى يعيد طبع الشوقيات الكاملة .

ولكن العمل العظيم الذى قدمه السوربوى فى كتابه يمكننا من ذلك الأمل حين نفكر فى إعادة طبع الشوقيات الكاملة .

١٠ - الدكتور إبراهيم ناجي

يخيل إليّ في بعض لحظات الصفاء أن (إبراهيم ناجي) كان يقتبس من
عبقريّة شوقي .

إحساس غريب !

لقد ألقى (ناجي) قصيدة على قبر شوقي قال فيها :

ما كنت إلا أمة ذهبت والعبقريّة أمة الأمم
أو شعلة أبصارنا خلّبت ومنازة نصبت على علم
أين النجوم أصنع كما أهوى شعراً كشعرك خالداً أبداً ؟
لكن حزني لو علمت به : لم يبق لي صبراً ولا جهداً
وعندما تغت أم كلثوم بإحدى قصائد (ناجي) وهي قصيدة الأطلال
أحسست أن روح شوقي ترفرف على الشعر والغناء .

إحساس غريب أيضاً !

نحن لانعلم أن هناك صداقة بين شوقي (وناجي) ، وكل ما وصل بينهما هو جماعة (أبوللو) الشعرية التي كان أمير الشعراء أول رئيس لها . وكان شوقي يجتمع دقائق معدودات وأعضاء الجمعية ، ثم ينصرف ، كما كان قليل الكلام ، بعيداً عن الجدل والمناقشة .

كان مثل الغزال الشارد أو الطير الهائم ، لا يستقر في مكان على حين كان الدكتور ناجي من أعظم البوهيميين السارحين في مجال الحسن والجمال ! كما كانت لأمر الشعراء رسميات في المقابلات واللقاءات ، لأنه أمير : ولم يكن راضياً عن شعر التجديد الذي زعمته لنفسها جماعة أبوللو مع أنه رئيسها ، لأن الشعر عنده مثل قطع الماس الثمين تزيد السنون بريقاً ، ولا يجوز عنده أن يكون الشعر قطعاً من زجاج تشبه الماس وليس لها بريق .

وشوقي كان يملك قطعاً كثيرة من الماس الحر ، ويعرف قيمتها ، ولكن سوق الشعر في عصره امتلأت بالماس المغشوش الذي ادعى أصحابه أنه جديد ! الكأس المعتقة لا يعرف كيف يشربها إلا من يعرف الشراب .

و ذات يوم قال صالح جودت - إن شوقي وصف البيرة في قصيدته :
حف كأسها الحبيب فهي فضة ذهب

فضحكت لأن شوقي كان يصف الشمبانيا ، ولم يكن يشرب البيرة . وكأس الشمبانيا لا بد أن تكون من الكريستال الثمين ، وهو أغلى من الذهب ، والحبب فيها حبات ناصعات من الفضة والذهب ، وليس رغو صابون مثل أكواب البيرة !

إن شعراء جماعة أبوللو الذين منحهم شوقي مسحة من عبقريته هم : إبراهيم ناجي وعلي محمود طه وصالح جودت وأحمد فتحى .

ولكن أمير الشعراء مسح على جبين ناجي في لحظة من لحظات الرضا

كأيقولون ، فكان أشعرهم ، مع أنه اعتقد أن (خليل مطران) هو الذى يحدد الشعر معهم ، وقد انتخبوه رئيساً للجماعة أبوللو بعد وفاة شوقي .

وخليل مطران من أثقل الشعراء وزناً ، مع أنه كان ضئيل الوزن ، وقد ضاع شعره فى غيابات الزمان . ولو سألتنى لقلت لك : إن بشارة الخورى الأخطل الصغير كان أشعر من مطران ، وهو الذى غنى له محمد عبد الوهاب :

جفنه علم الغزل ومن العلم ما قتل
وحرقنا نفوسنا فى جحيم من القبل
وليس فى استطاعتك حين تسمع هذا الشعر إلا أن تقول :

- الله .. الله !

إن (عبد الرحمن شكرى) كبير شعراء التجديد فى الجيل الماضى له دواوين حمل بعير ، ولكن ماذا نتذكر له ؟ لاشئ ! ليس له بيت واحد يمكن أن نتذكره ، وهكذا خليل مطران ، وغيرهما من الشعراء الذين ماثوا الدنيا صياحاً فى عصر شوقي وحافظ .

لقد جنت وحدة القصيدة على شعراء التجديد ؛ لأن الشعر العربى له خصائص لن تزول ، وأولها وحدة البيت ، وقد كان لشعراء الجاهلية مقطوعات فيها وحدة القصيدة ، ولكنها كانت على شروط الشعر العربى وأوزانه ، وألفاظه ، وأسارته الفنية التى جعلته فناً من فنون القول ، وليس فناً من فنون الكتابة .

استمع إلى مقطوعة هذا الشاعر الجاهلى (المنخل الشكرى) التى يقول فيها :

ولقد دخلت على الفتاة الحذر فى اليوم المطير
الكاعب الحسناء تر فى الدمقس وفى الحرير
ودفعها فتدافعت مشى القطاة إلى الغدير
ولثمتها فتنفست كتنفس الظبي الغرير

وأحبها ————— ونجنى ونحب نأقها بعيرى
 هذه هى وحدة القصيدة على شروط شعر العرب ، حتى تصبح أبياتها نغمة
 واحدة ولحناً واحداً ، وكأنها بيت واحد من الشعر .
 لم يستطع شعراء التجديد أن يحكموا وحدة القصيدة مثل هذا الإحكام ، ولم
 يستطيعوا أن يكتبوا شعراً عربياً على نمط الشعر الأوروبى فى وحدة قصيدته ، ولكن
 (طه حسين) كان يحرضهم على شوق ، ويتخذ من خصومته وسيلة من وسائل
 الشهرة ، كما فعل مع المنفلوطى من قبل ، فنعلق على أكتافه ليراه الناس !
 حاول (ناجى) كتابة شعر يلتزم بوحدة القصيدة ، وكان أبدع ما كتب هو
 قصيدته النأى المحترق التى يقول فيها :

| | |
|-------------------|----------------------|
| كم مرة يا حبيبى | والليل يغشو البرايا |
| أهم وحدى وما فى | الظلام شاك سوايا |
| أصبر الدمع لحناً | وأجعل الشعر نأيا |
| ما أتعس النأى | بين المنى والمنايا ! |
| أظل أطلب منه | سلوى قبل صدايا |
| وهل يلبى حطام | أشعلته بجـوايا |
| النار توغل فيه | والريح تذرو البقايا |
| ما زال يشدو حزينا | مرجعاً شـكوايا |
| مستعطفا من طرفيا | على هـواه الطوايا |
| حتى سرى لى خيال | عرفته فى صبـايا |
| أدنو إليه وتدنو | لشغره شفتايا |
| إذا يحلم كذوب | واستيقظت عينايا |
| ورحت أصغى وأصغى | لم ألف إلا صدايا |

وأنت ترى أن هذه المقطوعة أقل قيمة من مقطوعة الشاعر الجاهلي النخل
الشكري حتى في اختيار الألفاظ الموسيقية ، فهو يقول :

أصبر الدمع لحناً وأجعل الشعر نايًا

ولفظة (أصبر) أثقل من جبل المقطم ، ولو أحسن لقال :

أذوب الدمع لحناً وأجعل الشعر نايًا

ولكن ناجي وغيره من الشعراء لم يتابعوا هذا اللون من الشعر ، وعادوا إلى
الأصل في كتابة القصائد ، والتزموا بوحدة البيت حين يجب الالتزام ، وأنت ترى
أن الشعر العربي منذ الجاهلية لم يمنع وحدة القصيدة كما زعم الدكتور طه حسين ،
وصدقناه خوفاً منه لأنه أستاذنا .

ولم يستطع شعراء التجديد في الجيل الماضي كتابة شعر الملاحم ، والشاعر
الوحيد الذي كتب ملحمة شعرية هو (أحمد شوقي) في رائته الخالدة (كبار
الحوادث في وادي النيل) وهي قصيدة :

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء

إنها ملحمة على شروط الشعر العربي ، لا على شروط الشعر اليوناني ، وقد
وصفها الدكتور هيكल فقال :

« هي رواية من الروايات الخالدة لتاريخ مصر منذ عهد الفراعنة إلى عهد أبناء
(محمد علي) وقف فيها الشاعر وقفة مصري صادق العاطفة تفيض عليه ربة الشعر
تاريخ بلاده منذ عرفها التاريخ ، أي منذ عرف الناس شيئاً اسمه التاريخ » .
ولكن تحكم النقاد الذين أرادوا تطبيق مذاهب النقد الأوربي على الأدب
العربي كان من العجائب وما زالوا من العجائب ، فهم يتحدثون عن إلياذة
هوميروس في شعر العرب ، ويبحثون عن الشعر القصصي في شعر العرب ، ولا
يدركون أن لكل أمة من الأمم لوناً من البناء المادي أو البناء الفني .

هل قصيدة ت . س . اليوت التي سماها (الأرض الخراب) مثل إلياذة
هوميروس ؟

هل مسرحيات شكسبير مثل مسرحيات يوروييد ؟
إن مسرحيات جورج برنارد شو تختلف في بنائها الفني ومسرحيات شكسبير
فلماذا تلزم الأدب العربي بمقاييس الأدب الأوربي ؟
ليست عملية لون من الآداب في عصر من العصور مما يلزم آداب الأمم الأخرى
بالتزول عن تصويرها الفني .

ولكن التجديد عندنا منذ الجيل الماضي حتى اليوم مازال يبحث عن
الأشكال ، ولا يبحث عن المضمون . وهذا هو أخطر الأخطار في حياة الأمم
والشعوب .

لقد عاد (إبراهيم ناجي) وغيره من أبناء مدرسة أبوللو إلى عمود الشعر
العربي ، واستندوا عليه ، بعد أن يتقن الموهوبون منهم أن اختلاق التجديد الشكلي لا يجدي .
قال ناجي يصف شعر شوقي :

« إن أول مانصف به شعر شوقي أنه موسيقى فما معنى ذلك ؟ ذكرت إحدى
الجرائد الفرنسية مقارنة بين شوقي وبول فاليري شاعر فرنسا الأكبر في العصر
الحاضر ، وذكرت هذه الموسيقى ، وهي على حق : إن شوقي وبول فاليري اتفقا
في هذه الصفة .

والموسيقى من حيث إنها تحتاج إلى اللفظ والصياغة - إنما هي إذن في حاجة
إلى الإلمام العظيم باللغة ، هذا إلى ذوق خاص لا يمكن اكتسابه بسهولة ، وإلى أذن
تحسن السماع وتميز الأنغام .

ولكن إبراهيم ناجي شطح ونطح في تفسير الخيال عند شوقي وغيره من
الشعراء ، وتحدث عن الصور الشعرية ، وغير ذلك ، ثم زعم أن شوقي تميز بكثير

من صفات الشاعر الكامل .
والكمال لله وحده .

إن النظريات النقدية للشاعر (إبراهيم ناجي) لا قيمة لها إلا من ناحية تصوره
لمفهوم الشعر الذي كان يحسن به أن يطبقه على نفسه .
إنه يقول عن حافظ إبراهيم : إنه شاعر انعدمت من شعره صور الخيال !
ويقول : إن مطران له قصائد منفردة منقطعة النظير في الصور يرسمها وينقلها
إلى الأذهان .

هذه كلها آراء جزافية ! وما لاشك فيه أن ناجي تأثر بشوقي تأثراً شديداً من غير
أن يشعر بذلك . وأكبر مثال على ذلك قصيدته (الأطلال) التي تغنيها أم كلثوم .
ويسمعها الناس : فإنه في بيت واحد منها كان من كبار الذين يترسمون خطوات أمير
الشعراء .

أعطني حريقى أطلق يدياً إننى أعطيت مااستقيت شيئاً
بيت الشعر المفرد الذي يصبح حكمه أحد سمات شوقي الظاهرة . الأخطل
الصغير سمع .

حف كأسها الحبيب فهى فضة ذهب

فقال :

جفنه علم الغزل ومن العلم ما قتل !
ليس هو الوزن المعروف في الشعر ، ولكنها النغمة والموسيقى التي تحدث عنها
(ناجي) . وقد كان شوقي من كبار الموسيقيين ، ويكفى أن تلميذه هو محمد
عبد الوهاب .

أبو القاسم الشابي حين قال :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

ولا بد لليل أن ينجلى ولا بد للقيد أن ينكسر
 كانت قد وصلته في تونس مسحة من عبقرية شوقي ، ولقد كان الشايف عضواً
 في جماعة (أبوللو) التي تزعمها شوقي .
 أما إبراهيم ناجي فقد وصف شوقي في قصيدة عنوانها (هدية السماء) وقال
 فيها :

| | |
|----------------------|-----------------------|
| ومنعم بين القصور | قد استتم له الثراء |
| ما باله حمل الممو | م وجثم القلب العناء ؟ |
| وينوء بالعبء الذي | هو عن أذاه في غناء ! |
| ويح الذكاء وما يكلفه | من الثمن الذكاء |
| أضنى قواه ولم يبرح | من جسمه إلا ذماء |
| والمجد يوغل في حنا | يا روحه والمجد داء |

كان ناجي يؤمن بعبقرية شوقي برغم كل ما قاله عنه ، ويبدو أن موضحة العصر
 كانت تتسم بمهاجمة شوقي ولو من بعيد ، حتى بعد موته !

١١ - محمد عبد الوهاب

بعد أربعين يوماً من نهاية الرحلة التي غنى فيها الشاعر العبقري أعذب الألحان ،
رفع الستار عن مجموعة كبيرة من الموسيقيين والمغنين يتوسطهم الموسيقار الفنان
(محمد عبد الوهاب) واهتزت الأوتار بنغم من أنغام (الصبا) الشجي الحزين ، ثم
علا صوته ينشج ويتهدج .

كان صوت عبد الوهاب يغني هذه الكلمات :

خـ طـ مـ و
الأقـداح
مثل ماحطمت حزناً قدحى
ودعوا الأفـراح
طوى اليوم يساط الفرح
مات خير الشعراء

فأبك يا قلبي فذا وقت البكاء

خلدوا ذكره في كل القلوب

خلدوها

مجدوا ذكره شباناً وشيب

مجدوها

لن تردوا بعض ما أسدى لكم

أبداً، مهما فعلتم أبداً

إن دمعي يتكلم

فاسمعوني

إن قلبي يتحطم

فاعذروني

مات خير الشعراء

فأبك يا قلبي

فذا وقت البكاء

كانت هذه الكلمات التي غناها أو بكأها (محمد عبد الوهاب) تتردد على مسرح حديقة الأزبكية في أربعين شوقى .

ومحمد عبد الوهاب تلميذ شوقى بلا منازع ، وهو يذكره دائماً كلما تحدث ، ولكننى أذكر عبد الوهاب هذه الأبيات التي لا أعرف قائلها وأعرف أن

عبد الوهاب بكها . . لا غناها . .

لقد شاعت في مصر قصة أمير الشعراء الفنان الذي ضم إليه فنانا حياً اسمه محمد عبد الوهاب وكتب شيخ العروبة (أحمد زكي باشا) كلمات عن هذه القصة الرائعة التي جمعت بين نغم الشعر ونغم الموسيقى ، فقال :

« الآلة التي جاء بها شوق للشرق وللن في حالة وجوده ، والتي مازال ينفخ فيها الحياة بعد وفاته ، فهي الناطقة ببرهان الألحان ، الماثلة للبيان بألوان الأنغام في شخص محمد عبد الوهاب !

نظر شوق بنور الله إلى النبوغ الكامن في حنجرة هذا المراهق الناشئ ، فاستخلصه لنفسه ، وقرنه من صحبه ، ثم أفاض عليه سجال الثروة حساً ومعنى ، ونفث فيه سحر الشعر ، وصاغ لنفسه جواهر القول ، حتى طلع علينا بذلك الصوت الباهر الساحر ، وأصبح له ذيك الصيت النادر الطائر ، فكان عبد الوهاب وتبارك الله !

وكان له يد في تهذيب الرنين الموسيقي في تلك النفحات الشوقية فكان شأنها معاً في هذا المجال - وفي هذا المجال وحده - كالبحر يطره السحاب »

ثم تحدث شيخ العروبة عن الحفل الذي حدثتلك عنه ، وهو الحفل الذي بكى فيه عبد الوهاب ليلة الأربعين بعد ذهاب شوق ، وقال عن الحفلة :

« تمثل الوفاء بما ترضاه محامد الأخلاق ، وفيها رأيت العجب العجاب »

ووصف أحمد زكي باشا حفلة عبد الوهاب بأسلوب عصره فقال :

« هل أتاكم حديث آلات الطرب ؟ إن الأوتار المشدودة والمعادن المطروقة والمسبوكة والمصبوبة والعيذان المنشورة والمربوطة والمشقوقة - كانت كلها في اتساق واتزان وفي تناسب وتجانس وهندام تترنم ، ثم تتكلم .. ثم تترجم ! وبين الاهات والنبرات زفير يترجم عن الأنين إلى شهيق يعبر عن البكاء الذي يبعث البكاء

ولكن . كانت الأبصار شاخصة والقلوب واجفة ، والألسن منعقدة والرءوس مطرقة .

كل ذلك السكون التام وكل ذلك السكون العميق لثلا تنفر الملائكة التي تنزلت من سماوات العلا ، واستقرت كأنها الطير على تلك الرءوس ! فلم تكن تسمع للقوم ركزاً ولا همساً ، ولاتكاد تصدق أن فيهم حركة أو حساً .. إلى أن انتهى التلحين الحزين ، ومن العجب أن إنساناً واحداً لم يسمح لنفسه بالتصدية والتصفيق ! فقد تمادى الناس على حبس الأيدي والأنفاس خوفاً من التشويش على ما بقى من أثر ذلك الترتيل في التسييح الذي أنزله الله على قلوب من جنات الفراديس »

كانوا في عصر شوق يقولون : إنه ولد ليكون موسيقاراً فصار شاعراً ، ولكنهم لم يدركوا أن الشعر هو الموسيقى ، وأن الموسيقى هي الشعر ، لأنهم عاشوا أكثر من ألف سنة مع الذين ينظمون الشعر ولا يعرفون الموسيقى .
ومحمد عبد الوهاب شاعر لأنه موسيقى ، ولولا شاعريته ما استطاع أن يصل إلى انغامه وألحانه .

والشيء الوحيد الذي جمع بين شوقي وعبد الوهاب هو النغم أو هو الشعر .
لا شعر بغير نغم . ولا نغم بغير شعر .
هذه هي القضية .

وما الذي جمع بين (شيللر) و (بيتهوفن) في بيت (يوهان جوته) في مدينة فايمار ؟

قصيدة (شيللر) التي سماها السعادة أنطقها (بيتهوفن) في السيمفونية التاسعة بعد أن سمعها من الشاعر ، ثم نطق بها اللحن بعد عشرين عاماً .
كان للشاعر (شيللر) كرسي في بيت (جوته) وكان للموسيقار (بيتهوفن) بيانو

في بيت (جوته) ولم يكن أحد يجرو على الجلوس فوق كرسي (شيلر) ولم يكن أحد يجرو على العزف بأصابع بيانو (بيتهوفن)
هذا هو الفن .

وكان لمحمد عبد الوهاب مكان في بيت (شوقي) ومكان في قلب (شوقي) .
ولكن أمير الشعراء لم يكن جديداً في فن الغناء والموسيقى ، بل إنه ألف مقطوعات لعبده الحامولي ، وعندما افتتح معهد الموسيقى الشرق كتب قصيدة ألقاها في حفلة الافتتاح الشاعر على الجارم ، لأن أمير الشعراء كان لا يلقى قصائده . بل يترك إلقاءها للآخرين .
ويقول شوقي في هذه القصيدة :

لولا ابتسام الفن فيما حوله ظل الوجود جهامة وجفاء
جرد من الفن الحياة وماحوت تجرد الحياة من الجبال خلاه !
ولكن أمير الشعراء الذي كتب أعذب الأغنيات لعبده الحامولي وغيره من كبار المطربين لم يأنس لصاحب أنغام كما أنس لمحمد عبد الوهاب وسبحان الوهاب .
يقول محمد عبد الوهاب : إنه من حفدة (عبد الوهاب الشعرائي) وقد يكون هذا هو سبب الأنس الذي لا يفهمه بعض الناس ، لأن الشعرائي كان من أصحاب الأنس والبهجة والخبور والسرور في الوصول إلى المحبة والحب .
وكان (شوقي) من الواصلين ، كما أن (عبد الوهاب) من الواصلين ، والوصول ليس صعباً في طريق العارفين .

أنا لا أريد أن أبتعد بك كثيراً عن إلهامات (شوقي) لمحمد عبد الوهاب ، ولكنني أقول لك : إن الفن إلهام ، وسبيلان من يلهم فتسمع أو تقترب من السماع . وشوقي كان شاعراً يأتي إليه الإلهام من السماع ، فيلهم به قلبه ، ثم يلهم به من أراد أن يسمع الإلهام .

وسمع عبد الوهاب .

وقال أمير الشعراء لمحمد عبد الوهاب : « غرد عبد الوهاب »

« غرد يا كنارى الناي ، واصدح ياهزار الوادى واحذ الركاب وهزها .ياحادى .

أهذا يابلبل الناي تغريد ، أم هذا وسواس الحلى على الخرد العيد .

وجرجرة الوشى من الهيف الرعاديد ؟

أم هذا همس الجداول فى سمع الأماليد ؟

غن من الكبد أحيانا

ومن القلب أحيانا

وقل عاطفة ووجدانا

غن

تر العشاق كيف يبكون ؟

وحملة الأشواق مم يشكون ؟

وتر الممثلين كيف يمثلون ومحكون ؟

آمنت ببيان الحناجر ، وبالحلحاح الساحر ، والعصب الشاعر ، وشهدت أن وترأ

يخلقه الله يشد به اللسان إلى اللهاة لا يصنع الإنسان له مثيلاً وإن ألفيتهم صنعوا

جليلاً ، وسما صنعهم فناً جميلاً .

وقد وهب الله لك عبد الوهاب أندى الحناجر ، وخلق لها ألين الأوتار ، وخلق

منها أرخم الأصوات وذلك على الصوت تنشره وتطويه ، وتميته ثم تحيه وتقلبه ثم

تنظر فيه ، كأنما صوتك فى يدك ، وكل مغن صوته فى فيه .

وهذا النص الأدبى الذى كتبه شوقي لمحمد عبد الوهاب ، لم يكتب نص مثله

فى آداب العرب لصاحب غناء وطرب .

وكما طالت الألسنة على شوقى طالت على عبد الوهاب ، فاتهموه بالسرقة من

موسيقى (بيتهوفن) أو (شوبان) ، كما اتهموا (شوقي) بأن الذى يكتب له الشعر إنما هو الشيخ (زكى سند) مؤسس (جعاة مكارم الأخلاق) ، وكان مدرساً فى مدرسة اليسوعيين ، وهو جار من جيران شوقى عندما كان فى بداية شبابه يعيش فى حى عابدين مع والده وأسرته .

ثم مات الشيخ (زكى سند) وبقيت شاعرية شوقى وعبقريته ، وقدرته اللغوية الفائقة فى نسج الكلمات الذهبية .

ونحن لانعلم شيئاً عن الشيخ (زكى سند) ، ولكن عبد الوهاب المسكين منهم فى بيتهوفن وشوبان وهما من أعلام الموسيقى فى العالم .

وقد تعلم عبد الوهاب من شوقى درساً فى الفن لا أعتقد أنه يستطيع أن ينساه . كان عبد الوهاب مع شوقى فى لبنان ، وقد تقرر أن يقيم حفلة غنائية ، وفجأة جاءته الصدمة حين قرأ فى إحدى الصحف المصرية التى وصلت إلى لبنان خبراً هز كيانه ، وهو خبر وفاة والده ، وأراد أن يعود إلى مصر فوراً ويلغى كل حفلاته فى لبنان .

وحاول شوقى أن يهدئ الموسيقار الشاب الذى صنعه بيديه فعبز ، وكان (طه حسين) يصطاف فى لبنان فاقترح (شوقى) على (محمد عبد الوهاب) أن يذهبا معاً لزيارة (طه حسين) ، ليعرفا رأيه فى المشكلة ؛ وتم لقاء الثلاثة الكبار ، وقال (طه حسين) كلمات عن واجبات الفنان ، أقنعت (محمد عبد الوهاب) وقال : إنه سيبقى فى لبنان ليؤدى واجبه كفنان ، ولكن بقيت المشكلة .. ماذا يغنى ؟ وكان الحل فى يد شوقى أمير الشعراء ؛ لأن عبد الوهاب لن يغنى أغانيه المطربة .

ثم جاء الإلهام الذى حدثتك عنه ، وكتب شوقى بداية الكلمات :
الليل بدموعه جاني ساحام نوح ويأيه

نوح و اشرح اشجاني . ده جواك من جنس جوايه
أنا قلت لك : إن شوقى كان واصلاً ، وهو يتحدث الآن معك عن الجوانية .

(ده جواك من جنس جوايه)

ثم أكمل أمير الشعراء الكلمات الباكية ليغنى محمد عبد الوهاب :
الشوق هاجك من نوحك وشكيت الوجد معاه
أبكى بالدمع لنواحك وتنوح بإحمام لبكايه

* * *

بعد الأحباب لوعنا والصبر دواك ودوايه
مسير الأيام تجمعنا إن كان فى الصبر بقايه

* * *

إن لقيت عندى من حبي سلطان العشق هوايه
أنا خدت الدمع من قلبي . واكتم فى القلب أسايه

* * *

وغنى عبد الوهاب هذه الأغنية الحزينة الباكية ليسعد الناس ، ثم بكى ،
وأبكى الناس وتلقى التهتهة والتعزية فى وقت واحد .

إن قصة شوقى وعبد الوهاب لانتتهى ، ويبدو أنها ليست لها نهاية .
إنها تشبه قصة (جوته) مع (بيتهوفن) .. وهى قصة الشاعر والموسيقار ،
وكلاهما فنان ، مهما اختلف الزمان .

ماذا يحدث لو أن أمير الشعراء كان يعيش بيننا اليوم ،
ويلتقى بفنه العبقرى والعبقرى الآخر محمد عبد الوهاب
هل كان شوقى يكتب الكلمات نفسها ؟
هل كان عبد الوهاب ينغم النغمات نفسها ؟

لست اعتقد ..

ولكن لقاء العبقريه لا يتم إلا مرة واحدة فى كل جيل .. وقد تم فى مصر بين الشاعر الشامخ الذى كتب حروف الذهب ، وبين المراهق الناشئ الذى يدغدغ الألحان ، وكان هو اللقاء الذى صنع الموسيقى . ولم يكن بين شعراء العربية من يترنم ويغنى ويفتن بالكلمة أعظم من شاعرين هما : أبو الطيب المتنبي وأحمد شوقى .

العرب يملكون آلاف الشعراء والشعر ديوان العرب .. ولكن هذا الديوان لم يكتب حروفه الذهبية غير المتنبي وشوقى ، أما الحروف الأخرى فإنها من فضة أو حديد ، أو منحوتة فى صخر ، وبعضها حبات رمال فوق صحراء !
المعلقات التى خلدت أسماء الجاهليين ليست من حروف الذهب !

الدواوين الخالدة فى تاريخ الأدب العربى ليس فيها حرف واحد من ذهب ، ولكن شوقى هو الذى كتب حروف الذهب ، كما كتبها الشاعر الآخر الأكبر أبو الطيب المتنبي . شوقى هو الذى جعل الشعر كلمة يتغنى بها الناس فى الشوارع .
وأى كلمة ؟

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي فى الأشهر الحرم
شوقى .. شاعر العربية الأكبر

وهو الذى كتب باللهجة المصرية العامية ، وعلم الشعراء كيف يكتبون بهذه اللهجة ؛ فلم يعرف السر غير واحد لا يتكرر هو (بيرم التونسي) لأنه تعلم أسرار العربية قبل أن يكتب حروفاً باللهجة المصريين ، وهى عربية تأخذ بلاغتها وفصاحتها من بلاغة العربية وفصاحتها .

التحدى الذى قدمه شوقى حين كتب باللهجة المصرية ، هو تأكيد صفة الشاعر وحقيقة الشاعر .

وأنا أقدم إليك قصيدة شوقية كتبها باللهجة المصرية العامية ، لترى كيف كان يكتب حروف الذهب :

| | |
|--|-------------------------------|
| شجى معنى بالورد هائم | بلبل حيران على الغصون |
| بكى وغنى والورد نايم | في الدوح سهران من الشجون |
| في مجلس الورد | سكران بغير الكاس |
| ومنظر الخد | من عنبر الأنفاس |
| ويمد طوقه ويشم ريحته | يبص فوقه ، ويبص تحته |
| وجناح يقوم به وجناح يميل | فئن يحطه وفئن يشيل |
| وراه الويل ياقلبه | في إيد الليل يلعب به |
| مادرى بالشوق من شوقه | مجروح من ساقه ومن طوقه |
| ياليل ده طير بدن وروح | من دوح لدوح سهر ونوح |
| وراح يمين وجه شمال | من فرع غصنه ع الورد مال |
| ياورد أحسن من ورد خنة ! | قال له : ياسوسن ياتمرحنة |
| ومن الشفق كونك مين ؟ | مين بالفرح لونك مين ؟ |
| لشوكة جمالك وضعت السلاح ! | يارمحة الحبايب ياخذ الملاح |
| واللى كساك الورق ولفه دى اللفة | تبارك اللى خلق ظلك من الخفة ! |
| ياورد فوق ، لا الجناح ينهض ولا الجرح يرق | زى القبل ولفه شفة على شفة |
| جسد على الأرض ملق | تشوفنى وقت الصباح |
| ويعيش جمالك ويبقى | أموت شهيد الجراح |

وقد غنى عبد الوهاب بعض أبيات القصيدة ، وأنت ترى أن ألفاظ القصيدة في جملتها ليست عامية ، ولكنها مكتوبة باللهجة المصرية ، وهى أقرب اللهجات إلى الفصحى .

ولم يكن شوقي يكتب باللهجة السوقية . في أغانيه العامية ولكنه كان يقترب دائماً من الفصحى ، وكان يقول :

- لست أخشى على الشعر العربي إلا من زجل بـيرم التونسي .

ولكن (شوقي) كتب العامية ، فهل أصبحت أغانيه خطراً على الشعر العربي وهو أميره وكبيره ؟

إن أهم ما كتبه شوقي لمحمد عبد الوهاب بالعامية هي أغانيه الأربع المشهورة :

* بلبل حيران

* النيل نجاشي

* في الليل لما خلى

* الى يحب الجبال

وعندما سمع (بيرم التونسي) أغنية (محمد عبد الوهاب) النيل نجاشي ، كتب زجلاً شهيراً قال في مطلعته متوجهاً بالحديث إلى أمير الشعراء صاحب الأغنية :

يا أمير الشعراء غيرك في الزجل : أصبح أميرك
وكان شوقي يحب في بعض الأحيان كتابة الشعر العامي ، ويتلذذ بذلك ، وقد

كتب لعبده الحامولي دور :

يا ما انت واحشني وروحي فيك يامانس قلبي لمن أشكيك ؟

أشكيك للى قادر يهديك

كما أنه كتب لمحمد عبد الوهاب أول أغنية بالعامية ، وهي أغنية :

شكيت قلبي ياعيني شوقي بقى مين يحله

النوم بينك وبينى إمتى يجبنى وأقول له

ولكن قصة كتابة شعر العامية لم تبدأ عند شوقي ، ولكنها بدأت عند أستاذه

شيخ الشعراء (اسماعيل باشا صبرى) ، وهو الشاعر الذى نسيه الناس ، مع أنه

كان حلقة الاتصال بين (محمود سامي البارودي وبين أحمد شوقي) .
البارودي رفض تأليف الأغاني لعبده الحامول عندما كان عبده المطرب الخاص
للخديو وقد حفيت أقدام (سبي عبده) حتى يكتب له البارودي كلمة يغنيها .
ولكن الشاعر الفارس الأرستقراطي ابن السلاطين استنكر أن يذكر اسمه على السنة
المغنواتية . وظل يقول الشعر الفصيح ويحدده .

والأمر العجيب الغريب هو أن البارودي كان سبب دخول الشعراء الكبار في
مجالات الغناء العامي الشعبي : فقد حضر في مجلسه بعد عودته من منفاه إلى بيته في
باب الخلق الشاعر (إسماعيل صبري) والمطرب (محمد عثمان) وقال الباشا :

- لماذا لا تكتبون كلاماً في مهاجمة الإنجليز الذين يحتلون بلادنا ؟

وأحس إسماعيل صبري بأن الكلام يوجه إليه . فقال :

أنا أكتب الكلام .. ولكن من يغني الكلام ؟

ورد عليه البارودي قائلاً :

- يغنيه محمد عثمان

وكتب إسماعيل صبري الكلمات التي مازلنا نسمعها حتى اليوم ، ولا يعرف

كثيرون لماذا كتب ؟

كانت كلمات الشاعر إسماعيل صبري تقول :

| | | | | | | |
|--------|-------|---------|--------|--------|------|-------|
| عشنا | وشقنا | سنين | ومن | عاش | يشوف | العجب |
| شربنا | الضنى | والأنين | جعلناه | لروحنا | طرب | |
| وغيرنا | تملك | وصال | واحنا | نصيبنا | خيال | |

كذا العدل يامنصفين ؟

وقد غنى عبده الحامول هذا الدور بعد أن لحنه محمد عثمان .

وكان الشاعر (إسماعيل باشا صبري) هو الذي فتح الباب ، فكتب أعذب

الأغنيات المصرية الحديثة ومنها أغنية :

| | |
|-----------------------|-----------------------|
| أخجل جميع الفصوص | الخلو لما انعطف |
| ورده بغير العيون | والخذ - آه - ما إنقطف |
| يشبه لبدر التمام | لما بدا لى الحبيب |
| فى الحال وهام بالقوام | صار الفؤاد فى لبيب |
| مغرم ضناه البعاد | ارحم ياسيد الملاح |
| فى حر نار الفؤاد | دمعه على الخد ساح |
| يلد فيه العذاب | الحب حاله عجب |
| ودمع عينه شراب | ذكر الحبيب فيه طرب |

وكانت أشهر أغاني (إسماعيل باشا صبرى) فى زمانه الأغنية التى ترنم بها

(محمد عثمان) وهى التى يقول فيها :

| | |
|--------------|--------------------|
| من غير مكابر | قدك أمير الأغصان |
| على الأراهم | وورد خدك سلطان |
| ياقلب حاذر | والجب كله أشجان |
| جزا المخاطر | والصد ويا المهجران |
| ورجعت نندم | ياقلب أدى أنت حيت |
| لك حد يرحم | صبحت تشكى ملاقيت |
| المتيم | صدقت قولى ورئيت |
| لو كنت تفهم | ياما نصحتك ونهيت |

ويبدو أن (إسماعيل باشا صبرى) هو الذى فتح الباب لأحمد شوقى حتى يدخل ويكتب بالعامية المصرية على طريقة أستاذه الكبير ، وأنت تلاحظ أن (صبرى باشا) لم يكن يكتب بلهجة السوق ، أو يتزل إلى مستوى الزجالين ،

ولكنه كان يكتب أغانيه باللغة الراقية وينظمها وينغمها وكأنها شعر فصيح ، ولم يبعدها عن هذا اللون من الشعر غير حركات الإعراب في أغلب أبياتها .
ويبدو لي أن المصريين هم الذين تسببوا في ضياع حركات الإعراب من اللغة العربية . وجعلوا أواخر الكلمات ساكنة بلا حركة ، مع أنهم كانوا أكثر الشعوب العربية احتفاظاً بألفاظ العربية في لهجتهم ، وهذا موضوع آخر لا أريد أن أشغلك به ، ولكنني سأكتب لك عنه ، وهو موضوع خطير ألف فيه بعض العلماء كتباً ، ولكننا نبحث من حوله ؛ لنعرف كيف قال الشعراء كلمات ناصعة نزع منها عامية وهي عربية ؟

المهم بعد ذلك هو أن (شوقي) سار على طريق شيخه وأستاذه (إسماعيل باشا صبرى) في كتابة الشعر باللهجة المصرية ، وكان يريد بذلك ما أرادته شيخ الشعراء في العصر الحديث من وصول الكلمة إلى الجماهير عن طريق الغناء ، وهو الفن الأعظم عند العرب قبل ظهور فن المسرح الحديث وانتشاره .
وكانت طريقة (شوقي) في تأليف الأغاني تشبه طريقة (إسماعيل صبرى) في الشكل والمضمون .

• الشاعر لا يمكن أن يكون زجلاً .

ونحن اليوم لانفرد بين الشاعر والزجال ؛ لأننا فقدنا أصول الفن الشعري ، ولم نستطع التفريق بين الكلمة الشاعرة ، والكلمة السوقية المنحدرة .
إن (أحمد شوقي) هو الذي استطاع بموهبته وعبقريته وضع الحد الفاصل بين الشاعرية والسوقية .

وأنت تسألني الآن عن هذا الفارق ، وهو دقيق رقيق يشبه الشعرة التي تفرق بين الحق والباطل ، أو بين الخير والشر .
إن ما ترتبط به آداب العامية ، وهي آداب سوقية في الغالب - لا يصور غير

١ الصور البعيدة عن الشاعرية ، وأنت ترى ذلك في نصوص الآداب الشعبية ، مثل قولهم :

يا أبو زعيزع قوم صلى وخلي مراتك تقلى
أو في قولهم :
الطشت قال لي

وأنت لن تجد في نصوص الأدب الشعبي صوراً شاعرية مثل الصور التي كتبها الشعراء الكبار ، وسبب ذلك هو أن الذين ألفوا هذه النصوص - وهم عند كل الشعوب من المجهولين المغمورين - لم تكن عندهم غير القدرة المباشرة على استرضاء الجماهير . لا القدرة القادرة على تصوير المشاعر والأحاسيس . وأنا لست من المهاجمين للآداب الشعبية أو الرافضين لها ، ولكنني أريد لها أن توضع في مكانها الصحيح بين الآداب .

كان رأى (طه حسين) مثل رأى (أحمد شوقي) في الأدب المكتوب باللهجة العامية المصرية ، وكان يقول : إنه يجئني على الفصحى من كتابات (بيرم التونسي) .

ولكن السؤال الحائر مازال في حاجة إلى جواب .

لماذا كتب أمير الشعراء باللهجة العامية المصرية ؟

إن أعظم الشعر الغنائي لشوقي كان بالفصحى ، وعندما سأله أم كلثوم أن يكتب لها شعراً تغنيه - كتب لها قصيدته الذائعة التي رفضت أم كلثوم غناءها في حياة شوقي ، وغنتها بعد موته ، وهي قصيدة :

سلوا كتوس الطلا هل لامست فاهها واستخبروا الراح هل مست ثناياها ؟
وكان شوقي يقول :

- لو كانت الأصوات معادن لكان صوت أم كلثوم من الذهب الإبريز .

ولكن أم كلثوم رفضت غناء القصيدة ؛ لأنها اعتقدت (أن شوقي) يريد أن يذكرها بأنها رفضت أن تشرب معه كأساً .
وكان شوقي الفنان من أسعد المعجبين بالفنانة ملك ، وألف لها الأغنية المذاعة :

يا حلوة الوعد مانساك ميعادى
عن الهوى ، أم كلام الشامت العادى ؟
كيف اتخذت بحسادى وما نقلوا ؟
أنت التى خلقت عيناك حسادى
طرفى وطرفك كانا فى الهوى سبباً
عند اللقاء . ولكن طرفك البادى

ويقول الرواة : إن (أحمد شوقي) كان من عشاق (ملك) ، وكان عشقه لها من ألوان العشق العذرى الرائع ، فكان يذهب إليها كل صباح ليصطحب بوجهها الصبوح ، ويشرب عندها فنجانة من القهوة ، ويقبل خديها ، ويقول لها كلمات الهوى ، ثم ينصرف .

ولكن (شوقي) كتب للمطربة المعروفة (ملك) شعراً فصيحاً ، من أروع أشعاره وكتب لأم كلثوم قصيدته التى ذكرتها لك ، وهى قصيدة :

(سلو كنوس الطلا هل لامست فاها ؟)

ولكنه كتب لمحمد عبد الوهاب شعراً بالعامية إلى جانب أشعاره الفصيحة ، وأشهرها قصيدته :

ياجارة الوادى طربت وعادنى ما يشبه الأحلام من ذكراك
وهى قصيدة جرت على لسان الشاعر فى لحظات الهوى ، ولم يكتبها ليغنيها عبد الوهاب ، ولكنه استلهمها أو ألهمت له عندما كان فى (زحلة) يصطاف فى

لبنان فرآها ثم ألهمت شاعريته فقال قصيدته .
هناك سببان في أن (شوقي) شاعر العربية الأكبر كتب باللهجة المصرية العامية
شعراً غناه مشاهير المطربين :

السبب الأول هو أنه كان من تلاميذ شيخ الشعراء (إسماعيل باشا صبرى)
الذى حرر الأغنية المصرية من السقوط والتهاقت ومن نغمة (أمان يالاللى) إلى
نغمة :

الحلو لما انعطف أنجل جميع الفصوص
والسبب الآخر هو (محمد عبد الوهاب) الذى أراد (شوقي) أن يجعله مطرب
الشرق وبلبل الشرق ، فكتب له بالعامية حتى يقر به من الجماهير الشعبية ويجب فيه
العامية ، ولكنه منحه القيمة العظمى فى الفن ، وهى القصائد الرائعة الخالدة التى
حولت فن الغناء المصرى والعربى من السوقية إلى السمو والارتفاع .
يكفى أن عبد الوهاب صاغ أعظم ألحانه فى قصيدة :

يا جارة الوادى

ويكفى أن عبد الوهاب وضع أساس الموسيقى الأوبرالية فى مقطوعات (مجنون
ليلي)

هل يتعلم الفنانون كيف يصوغون ألحاناً لروايات شوقي مثل ألحان (مجنون ليلي)
حتى تصبح المسرحية الخالدة من الأوبرات العالمية ؟
ولكننى أقول لك : إن (شوقي) كتب بالعامية شعراً غنائياً ؛ لأنه أراد أن يقدم
للناس شعره الفصيح الذى تغنى به اليوم وستغنى به غداً ، وبعد غد .

١٢ - المرأة

كان المتنبي أول شاعر عربي حير الناس ، ثم جاء شوقي فحيرهم أيضا . وقد شغل هذان الشاعران الدنيا من حولهما ومازالا يشغلانها . المتنبي لم يتحدث عن زوجته ، ولم يذكر اسم حبيبة أو عشيقته . وهكذا كان شوقي . وقد عصر الباحثون شعر المتنبي عصراً للبحث عن حبيبته ، واعتقد بعضهم أنه كان يحب (خولة) أخت سيف الدولة ، وأن أبا فراس ابن عمها كان يمقته لذلك . وقد نفى (طه حسين) هذا الحب على حين أيده آخرون ، واستندوا إلى قصيدة المتنبي في رثاء خولة فذكرها في واحد وثلاثين بيتاً من الشعر ، كما يستدلون على هذا الحب بمحاولة اغتيال المتنبي في حلب ، قبل هروبه إلى مصر ، وقد ماتت خولة بعد رحلته إلى مصر وعودته إلى العراق ، وانقطاع أسبابه مع سيف الدولة . وهذا الجهد في البحث عن غرام المتنبي ، يدلنا على أنه كان شاعراً بلا عشق ،

وأن أشعاره الغزلية كانت أشعاراً تقليدية ، أو وصفاً لبعض لحظات الهوى الطارئ
في تجارب، خاطفة لم تدخل قلب الشاعر مثل قوله :
وكان أطيّب من سبى مضاجعة أشباه رونقه الغيد الأمليد
وشعر الغزل عند المتنبي قليل ، وليس فيه دلالات على العشق الحار ، أو الهوى
الجارف . وقد أحس (طه حسين) بهذه الحقيقة ، وهو أستاذ وناقد يدرك
أحاسيس الشعراء ويدخل في عواطفهم ، ويحلل مشاعرهم . وكانت أذنه مثل
الجهاز الإلكتروني الذي يلتقط ويحلل ، وهو إحدى عجائب الزمان التي لا يوجد بها
الزمان .

لم يكن ناقدًا مدرسيًا يبحث داخل الألفاظ والمعاني ، ولكنه كان فنانًا يتسلل
داخل عواطف الشعراء وأحاسيسهم . وكان يملك كل أدوات الناقد من المعرفة
بالتاريخ واللغة والآداب والفنون ، ولعله كان آخر من قيل فيهم : إنه يلم من كل
علم بطرف ، وهو تعريف الأديب القادر عند القدماء .

لقد عجبت ذات يوم عندما جاء طه حسين إلى الرقابة على الأفلام السينمائية
بوزارة الداخلية ، وكنت مسئولاً عنها في تلك الأيام باعتباره الحكم في موضوع فيلم
سينمائي حدث حوله خلاف بين التصريح والمنع . وجلس في قاعة العرض وشاهد
الفيلم بأذنيه لابعينه ؛ لأنه مكفوف ؛ وكان لابد لنا من قبول حكمه ؛ لأنه القاضي
الأكبر في الفنون ، وهو في الوقت نفسه أستاذي .. وحكمه على العين والرأس .
كان الفيلم فرنسيًا ، وهو مأخوذ عن بعض قصص (جى دى موباسان) ، وقد
أيد طه حسين رأى المنع بسبب مشاهد صامتة في الفيلم تصور دخول شيخين
عجوزين يتوكان على العضا إلى بيت من بيوت الدعارة في باريس . واشتد عجبى
عندما سألت طه حسين عما يفعل الرجلان ، وكان هو قد استنح صورة المشهد

السينائي بذكائه الخارق . وبمعرفته للأدب الفرنسى . وكان الذى قاله (طه حسين)
هو ما صوره المخرج فى هذا المشهد .

سبحانك ياربى !

ومن عجائب (طه حسين) أنه كان يلقى علينا محاضرات عن النقائض بين جرير
والفرزدق ، وهى قصائد الهجاء الشهيرة فى الأدب العربى . وكنا نعتقد أن جريراً
يقول قصيدة فيرد عليه الفرزدق بقصيدة ، ولكن هذا العبقري الجالس على مقعد
من الخيزران الرخيص ، وأمامه منضدة خشبية لاتساوى نصف جنيه كان يفرك
كفيه ، والبسمة على شفتيه ، وهو فى زيه الأنيق الجميل الذى يرسم لك صورة
فنان . ويحييك فى الحياة .

وقال (طه حسين) إن جريراً كان يقول بيتاً واحداً ثم يرد عليه الفرزدق بيت
واحد . وطلب منا أن نحصى عدد الأبيات فى كل تقيضة من النقائض ، وكان
العدد متساوياً ، فانقلب ميزان النقد ، وبدأنا ننظر إلى نقائض جرير والفرزدق
نظرة أخرى ، ونحللها بيتاً من الشعر لبيت مقابل له .

وأسفاه ! ضاعت من أيدينا أثمن درر طه حسين ؛ لأننا لم نسجل محاضراته التى
ألقاها علينا فى كلية الآداب . ولو كانت أجهزة التسجيل قد اخترعت لوصلنا إلى ما
نريد ، ولكننا لم نكن نكتب ما يقول فى الكراسات ، وكيف كان فى استطاعتنا أن
نلاحقه ، وهو مثل النهر المتدفق الذى يجتاز كل الصخور والشلالات !

الكلمة المنخمة التى تأسرك ، والفكرة الناصعة التى تحلبك ، والأستاذ الذى
لاتسمع فى أثناء كلامه همساً ، بل إنك تكتم أنفاسك لتسمع ما يقول .. وسامعوه
فتيات فى مثل سنا لا يبلغن العشرين ؛ وشيوخ زائرون شابت نواصيهم .

قال طه حسين : إن المتنبي لم يعشق خولة أخت سيف الدولة . ولا هي عشقته ؛ لأنه كما قلت لك كان يسمع شعر المتنبي بهذه الأذن الإلكترونية التي تخلل ما وراء الشعر من عواطف الشاعر . وهذا لون من النقد يعتمد على العبقريّة الفنية . ولا يعتمد على الأساليب المدرسية في النقد . والبحث عن كلمة هنا أو كلمة هناك قد تنم عن هذا العشق .

وكان (طه حسين) هو الذي أنشأ كرسي الأدب المصري الحديث في كلية الآداب ، وسماه باسم (أحمد شوقي) ، وهو الذي خالف (شوقي) ونقده وأسرف في نقده لأسباب شخصية . بل إنه أعلن على الملأ مبايعته لعباس محمود العقاد أميراً للشعراء .

لعن الله السياسة التي جعلت عبقرياً مثل (طه حسين) ، يقول كلاماً لا يعتقده وهذه هي آفة السياسة ، ولكنها ليست جديدة عندنا ، فهي آفة معروفة عند كل الشعوب ، وقد عزف (بيتهوفن) سيمفونية لبونابرت الذي غزا بلاده . وأذل شعبه ؛ كما تقدم (يوهان ولفجانج جوته) إلى بونابرت ، وخضع له ، وهو شاعر ألمانيا الأكبر .

هذه هفوات في حياة العباقرة ، وقد سقط (فولتير) في إحدى هذه الهفوات . أو السقطات عندما ذهب إلى ألمانيا . وأوى إلى الإمبراطور فردريك الذي بنى لشاعر فرنسا التائر قصر (بوتسدام) وجعل فيه غرفة لها قبة تشبه قبة السماء ، سماها قاعة فولتير ، مازالت موجودة حتى اليوم .

كيف أصبح داعية الحرية والثورة تابعاً من أتباع الإمبراطور فردريك الألماني ؟ أشياء يحار العقل في تحليلها . ولكنها حدثت عند كل الشعوب . وقد حدثت

عندنا في مصر . وأنا أحكى لك هذه الحكايات : لأنها قريبة من حياة (طه حسين) وحياة (شوق) . فإن لقاء العبقريه لا ينفصل . مهما لعبت السياسة أدوارها في تلك اللعبة المزيّلة المتأفّهة . التي تمضى . ثم تبقى العبقريه .

كان (طه حسين) هو الذى دعا إلى دراسه الأدب المصرى الحديث ، وجعل له كرسياً في كلية الآداب سماه « كرسى شوق » . ولكن هذا الكرسي انخلع . ولم نجد له أثراً في دراسة أدبنا الحديث . بل إنه لم يجلس عليه دارس واحد لعبقريه شوق التي لا تتكرر .

محمد عبد الوهاب وأم كلثوم وهما أعظم من أسمعننا صوتاً ، كان شوق لهما هو صاحب الكلمة . وليس لهما خلود فنى إلا بخلود شوق الأدبى .

ستفنى كل الكلمات التي غناها وستبقى لهما كلمات شوق : أبدي الدهر . لقد روى (زكى مبارك) كيف آثر شوق لقاء (طه حسين) على لقائه ، مع أن (زكى مبارك) كان من الدعاة لعبقريه شوق على حين كان (طه حسين) من المعاندين لشوق .

ولكن الأديبين الكبيرين لم يتحدثا عن المرأة في حياة شوق . وهو ما أريد أن أحدثك عنه . ونحن لم نعرف اسم زوجة شوق ، لأن المجتمع المصرى في عصره كان يخفى النساء في الحرم . وكانت الأنثى (الوحيدة) التي عرفها شوق للناس هي ابنته أمينة . ولعله فعل ذلك لأنها كانت طفلة لا تطمع فيها العيون .

قال (شوق) مقطوعات شعرية في ابنته أمينة : ولعله ألف بعض أشعار الأطفال بسببها ، فقد كان يحبها حباً شديداً ، ويمنحها جيبه أو حافظه نقوده تنصرف فيها كما تشاء ، ولا يمنعها من ذلك .

وكان حب شوق لأمنية حباً عظيماً ، بل إنه من أعظم أشكال الحب . وقد كانت عواطف شوق الأبوية زاهرة عاصفة . حتى إنه اصطحب ولديه (حسين وعلى) معه عندما نفي إلى إسبانيا ، ووجد فيها السلوة في الاغتراب ، ولم يطلب اصطحاب زوجته . وهذه إحدى عجائب عبقريته ، فهو ليس في حاجة إلى المرأة ولكنه في حاجة إلى حب من لون آخر ، هو حب الأبناء ، لا حب النساء ! وكان شعر شوق في المنفى ينم عن حب آخر أعظم من حب المرأة ، فقد كانت كلماتها ترتبط بمصر :

وظنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه في الخلد نفسى
وهذا الشعور عند شوق يدلنا على حقيقة شخصيته التي مازال كثيرون في حيرة
عندما يحللون عناصرها ، فهي شخصية شاعرة ، تعتقد العظمة الذاتية . وشوق يشبه جوته في بناء الشخصية .
الشعر أمير ، والشاعر أمير .

أما المرأة فإنها ليست بذات بال في حياة العبقري ، وقد اعتنق (عباس محمود العقاد) هذه الفكرة ، وكانت له هفوات هي هفوات العبقرية . ولكنه كان يعتقد أن المرأة متاع للرجل ، وليست صانعة لعبقرية القادر الفذ . وقد أسرف في ذلك الفكر إسرافاً شديداً عندما تصدى للدكتورة بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن في مقالات شهيرة منشورة .

والمرأة في حياة العباقرة شئ مجهول مبهم ، وأنت تسمع قولهم : إن وراء كل عظيم امرأة ، وتسمع أيضاً أن العظيم يكون عظيماً بلا امرأة ، مثل أبي العلاء المعرى ، أو المتنبي أو شوق .

عندما نفي (سعد زغلول) طلب من السلطة البريطانية أن تبعث إليه بزوجه صفية زغلول .

وعندما نفي (أحمد شوقي) طلب أن يصاحب ولديه (حسين وعلى شوقي) .

وقد نفي (شوقي) قبل (سعد زغلول) وهما متعاصران في مجتمع واحد ، له تقاليد واحدة . وكلاهما تزوج زواجا تقليدياً بلا حب أو غرام .

ما علينا ..

إن المرأة في حياة شوقي محيرة . وقد كسر (يوهان ولفجانج جوته) هذه الحيرة عندما تزوج خادمتة . وهو الذي رفض الزواج من الأميرات الجميلات ! شئء محير ..

المرأة لغز غريب عجيب . منذ نزلت حواء مع آدم في بداية الحياة .

(حافظ إبراهيم) لم يتزوج . ولم تكن في حياته امرأة ، وخليل مطران كان مثله ، والعقاد أيضاً لم يتزوج ، والآنسة مى زيادة لم تتزوج ، وكان العقاد من أحبائها مع غيره من الرجال .

ليس الأمر خاصاً بالرجل أو المرأة فيما أظن . ولكنه خاص بالعبقريّة الأدبية أو الفنية . وهذا هو ما يدعونا إلى التقريب بين المتنبي وشوقي في الحب والعشق والهيام ، لأنّ يتابع العبقريّة لا ترتبط هي وهذا الينبوع العادي الذي يربط بين رجل وامرأة . ولكنها تربط العبقري بينوع آخر هو العبقريّة نفسها .

لقد تزوج (يوهان ولفجانج جوته) خادمتة في لحظة إحساس جنسي ، وأنجب منها ولداً تافهاً ، وهو شاعر الألمان الأكبر ، فكيف حدث هذا ؟ !

عندما تنجذب روح الشاعر بروح السماء يحدث النور الأعظم الذي يشعل

عبقرية الوجدان والشعور . وقد حدث هذا الانجذاب في روح (شوقي) . فكانت اللذة عنده هي لذة اللقاء بين الأرض والسماء في مفهوم الوحي الشعري . وقد تحدث معاصروه عن هذه الجذبة أو الانجذاب الإلهامي مما يشبه الوحي . وهو لحظة الإيحاء عند أصحاب الفنون الرفيعة من الشعراء والموسيقين والرسميين والنحاتين وغيرهم .

وكان (شوقي) من أصحاب الإيحاء ، شأنه في ذلك شأن غيره من عباقرة الفن . وليس لنا أن ننظر إليه على مقاييس التطور والتغير في الآداب وتاريخها ؛ فهذا حديث ممل يعرفه النقاد المدرسيون من محترفي النقد الأدبي . إن العبقرية لانقاس بزمان أو مكان ، ولكنها عبقرية في ذاتها وصفاتها وأشكالها وتكوينها ، وإذا حاولنا دراستها فيما سبقها أو فيما يلحقها فإننا نبحث عن جوهرها في الزمان والمكان ، وهما عاملان أساسيان في قياس العبقرية ، والتعرف على مقوماتها ومكوناتها . ولكنها ليسا قادرين على بناء العبقرية الذاتية التي تنفجر من الإنسان ، بل إنها يساعدان على بناء هذه العبقرية .

والمرأة في حياة (شوقي) لا تكاد تذكر ، وشعره في الغزل هو أهون الشعر ، برغم قيمته الفنية العظيمة .

كانت شخصية (روميو) هي التي حركت جوليت في مسرحية شكسبير الخالدة ، وكان (قيس) هو المحرك لشخصية (ليلى) في مسرحية شوقي الخالدة . ولكن كليوباترة كانت هي الأمرة الناهية في مسرحية شوقي (مصرع كليوباترة)

المرأة ..

لماذا المرأة ؟

عشق (شوق) شخصيتين امرأتين ، هما (ليلي) و (كليوباترة) ، وأبدع في تصويرهما إبداعاً عجبياً . ولكنه لم يجد في مسرحيته (على بك الكبير) و (قبيز) امرأة ليتحدث عنها ، مع أن العنصر الأساسي في البناء الدرامي هو المرأة .

ولم يكن هذا هو العجز عن إيجاد شخصية نسائية في مسرحيتي على بك الكبير وقبيز ، ولكنه كان الحب لشخصيتي ليلي وكليوباترة . والشاعر حين يجب لا يصرفه شيء عن حبه . وقد كتب شكسبير مسرحيته الشعرية عن (يوليوس قيصر) وليس عن (كليوباترة) وسلط الأضواء على البطل ، لا على البطلة ، وهكذا فعل (برنارد شو) عندما كتب مسرحيته (يوليوس قيصر) ، ولكن (شوق) كتب عن (كليوباترة) وهذا هو الفارق الذي أحدثك عنه من ناحية إحساس الشاعر أو الفنان بالشخصية .

وكان (شوق) يحب المرأة في (مصرع كليوباترة) وكان يحبها أيضاً في (مجنون ليلي) ، ولذلك لم يسقط اسمها حتى من عنوان مسرحيته الشعرية ، وذكرها باسمها ، ولم يذكر اسم قيس ، وكان في إمكانه أن يسميها (قيس ليلي) بدلاً من (مجنون ليلي) .

هذا هو الخيال في خيال الشاعر ، ولكن ما الحقيقة في معرفة شوق بالمرأة ؟ قصة طويلة عريضة ، رويت حولها الروايات ، وحكيت الحكايات . غلام جميل زاحمه (شوق) يوم الأحد عندما أراد دخول كنيسة في إحدى قرى لبنان ، حيث كان يصطاف أمير الشعراء ، وأراد أن يختلس الغلام . وما زال بعض الأدباء يلوكون بين أفواههم مثل هذه الحكايات .. ولا حول ولا قوة إلا بالله .

لقد رويت لنا أمثال هذه الأراجيف عن (زكى مبارك) ، وقد عرفته وعاصرته ، وكان من فحول الرجال علماً وأدباً وشخصية وقدرة قادرة . من عجائب مصر أنها تتسلل بالشائعات ، ولا تصدق الشائعات . وهذه إحدى خصائصها المحمودة ، وفضائلها الباقية . وهى من أسباب بقائها فى صراع مع الزمن . وقد أشيعت عن (شوقى) شائعات كثيرة ، ولكنها لم تمتد إلى صلاته الغرامية ؛ لأنه بحكم نشأته فى بيئة محافظة أو عمله فى القصر لم يكن فى استطاعته المجاهرة بالحب أو الغرام ، وقد كان يمشى ووراءه عيون ترقبه وتحصى كل خطوة من خطواته باعتباره شاعر القصر ، وكان الخديو يحصى على الناس أنفاسهم وخطواتهم ولا يسمح له بالاختلاط مع الشعب ، فكيف كان شاعر الأمير يستطيع ممارسة حياته العادية كما يعيشها الناس ؟

عندما كان إسماعيل تيمور باشا وهو ابن أحمد تيمور باشا يعمل فى وظيفة تشرىفاً فى قصر عابدين لم يكن يسمح له بالجلوس فى المحال العامة . وكان يتسلل إليها فى خفية عن الأعين ، وقد ترك أخوه محمد بك تيمور هذه الوظيفة فى قصر عابدين بسبب حبه للمسرح ، ولذلك كان (شوقى) يخفى صلاته الغرامية فلا يعلم بها أحد ، مع أن قلبه كان يشتعل بالوجد والغرام ، وكانت مطالع قصائده فى مدح الخديو من أعظم ما قيل من شعر الغزل ، ولكن السلطة كانت تمنع نشر هذا الشعر .

وعندما كتب شوقى قصيدته الرنانة فى مدح الخديو واستهلها بالغزل على طريقة الشعراء القدماء ، وبدأها بالمطلع الشهير :

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهن الشناء

بعث رجال القصر إلى مدير المطبعة الأميرية في بولاق رسولاً ، وطلبوا منه حذف كل أبيات الغزل من القصيدة قبل نشرها في جريدة الوقائع الرسمية .
وشعر الغزل عند (شوقي) ليس فيه حرارة الحب والعشق ، ولكنه شعر تقليدي ؛ لأن الشاعر لم يكن له غرام أو عشق وهيام ، وهذه هي إحدى عجائب .

كيف تمضي حياة شوقي بغير هوى وغرام ؟
سألني أحد الأصدقاء عن النساء في حياة شوقي ، وبحث في ذاكرتي ، وبعد قراءة ما بين السطور في حياة أمير الشعراء عجزت عن الوصول إلى المرأة التي أحبها شوقي .
قصة زواج أمير الشعراء لم يكن فيها حب ، بل إنه تزوج على طريقة عصره ، فكانت زوجته بنت أحد كبار الأثرياء . وهو زواج الحسب والنسب .
ولكن أمير الشعراء عرف كثيرات من النساء في حياته . وكانت معرفته لهن تتصل بالفن ، وأشهرهن السيدة فاطمة اليوسف التي أنشأت مجلة روز اليوسف في مبنى كان من أملاك شوقي عند بدء صدور المجلة ، وكان منهن المطربة الشهيرة السيدة ملك التي ألقت لها مقطوعات غنائية من أشهرها :

يا حلوة الوعد مانسأك ميعادي عن الهوى أم كلام الشامت العادي ؟
وهي من أحلى الأغاني التي ألفها شوقي .

وكان أمير الشعراء من المعجبين بالممثلة الشهيرة (فاطمة رشدي) وقد سمعت

من أحد المعاصرين أن (شوقي) كان يمر عليها في دارها كل صباح ليشرب معها القهوة ، ويداعبها ، ويربت على خدها ، ثم يودعها . وكان يسميها (بطة) . وقد كانت (فاطمة رشدي) من أجمل الجميلات في شبابها ؛ كما كانت نجمة ساطعة في المسرح .

أما أم كلثوم فقد كتب لها شوقي الأغنية الذائعة :

سلوا كئوس الطلا هل لامست فاهها واستخبروا الراح هل مست ثناياها
ورفضت أم كلثوم هذه القصيدة ، وحدث بينها وبين شوقي خصام ، ثم غنت
القصيدة بعد وفاة شوقي ، وبعد اثني عشر عاماً من كتابتها . كما غنت أروع أشعار
شوقي ، ولكنها لم تكن أشعار الغزل ، بل كانت أشعار الإسلاميات والوطنيات .
كان شوقي من عشاق الجمال ، ولكنه لم يعشق امرأة ، مع أن أستاذه (إسماعيل
باشا صبرى) عشق الأنسة مى ، وقال لها :

أنتى روحانية لاتدعى أن هذا الحسن من طين وماء
وانزعى عن جسمك الثوب بين للملا تكوين سكان السماء !
ونحن لانعرف تلك الفتاة الجميلة التى رآها (شوقي) فى وادى زحلة بלבنا ،
ثم كتب قصيدته :

ياجارة الوادى طربت وعادنى ما يشبه الأحلام من ذكراك
ولعلها كانت فتاة من بنات الجبل تجمع عناقيد العنب من الكروم ، أعجبت
أمير الشعراء .

وكانت حياة الشاعر الشاب فى فرنسا بعيدة عن المغامرات ، فلم نعرف أنه
أحب أو عشق ، وهو يشاهد مواكب الجميلات فى باريس أو مونيخ . وتلك
إحدى العجائب الغرائب .

إن البحث عن المرأة فى حياة شوقي مثل البحث عن المرأة فى حياة المتنبي : فقد
تعب الذين درسوا حياة المتنبي فى البحث عن المرأة . حتى قالوا : إنه أحب أخت
سيف الدولة الحمداني ، ولم يجرؤ على الإفصاح عن حبه خوفاً من سيف الدولة ،
ولكنه صرح بهذا الحب فى رثاء تلك الأميرة الحمدانية بعد موتها . بل إن بعض

الذين يتصيدون زعموا أن السبب في الخصام بين المتنبي وسيف الدولة كان هو عشق تلك الأميرة التي ماتت .

لقد تعبت في البحث عن المرأة في حياة شوقي .

في ليلة موته لم تكن معه زوجته ، بل كانت في غرفها ، وكان خادمه الخاص هو الذى يرعاه وحين أحس الخادم بالخطر على حياة سيده دعا سيده ، فجاءت من غرفها لتودع زوجها أمير الشعراء الوداع الأخير .

وكان حب شوقي لابنته أمينة من أعنف ألوان الحب ، فقد استباحته جيبه وهى طفلة ، وكان يسعد سعادة غامرة ؛ لأنها تستبجح جيبه ، وتأخذ مامعه من نقود ، وعندما نفي إلى الأندلس أخذ معه ولديه (على وحسين) ، وكان شديد السعادة برفقة ولديه الشابين في غربته ، ولم تكن له في إسبانيا مغامرة واحدة نشم منها رائحة العشق والهوى .. بل كانت قصائده كلها في الحنين إلى مصر معشوقته الأولى والأخيرة .

ولكن ليس معنى ذلك أن أمير الشعراء كان جامد الحس ، أو بعيداً عن الاستمتاع بالمرأة ، فقد كان يستلطف اللطيفات .. ولم يكن مجاهراً بمتعته ؛ لأن البيئة التي وجد فيها قضت عليه بالرصانة والتستر .

شاعر الخديو لا يصح له أن يبوح بما في قلبه في مشاعر أو إحساسات . ولذلك اختفت أمامنا صور العشق في حياة (شوقي) ، ولا أعتقد أنها اختفت من حياته . ولكنها كانت من لون آخر مما يصل إليه أصحاب اللذة والمتعة بغير عشق وغرام . وهو ما نسميه غرام الأثرياء أصحاب المال والسلطة والقدرة . وله في التاريخ شواهد كثيرة ، ولكنه على كل حال ليس غرام الشعراء والأدباء والفنانين .

كانت للشاعر (إبراهيم ناجي) غراميات لا تنتهى ، وكان ينغزل فى كل امرأة يلقاها ، ولو كانت من أقبح القبيحات ! ولكن شاعريته هى التى كانت تنطق بالهوى والغرام ، وترى القبح حسناً ، وترى الدميم جميلاً فيسيطر عليه الخيال ، ويستقل من حالة الوجود الحسى إلى حالة الوجود الروحانى ، والشاعر القديم يقول :

أهم بالحسن كما ينبغي وأرحم القبح فأهواه !

ولكن (شوقى) كان يهيم بالحسن وحده ، ويصفه ويصوره ، ولكنه لم يحترق فى نار الهوى والغرام ولذلك كان شعر الغزل عنده فاتراً برغم جمال تصويره وإبداعه وأنت لا تجد فى شعر (شوقى) كله غراميات ، مع أنه ألف ربايتين غراميتين هما (مجنون ليلى) و (مصرع كليوباترة) .

هو يتحدث عن الحب ، ولكنه لا يحب ولا يعشق ولا يذوب فى غرام ! وشوقى الشاعر ليس مؤلف دراما .. ولكنه قبل كل شئ شاعر . كيف لا يحب الشاعر ؟

أنا حائر فى هذه القضية ، وقد حيرت من قبلى من تحدثوا عن المتنبي ، فبحثوا عن غرامه ، ومازلت أبحث عن غراميات شوقى . وأقول لك : إننى لا أبحث عن هذه الغراميات من أجل الهواية ، ولكننى أبحث عنها لأعرف : لماذا كان شعر (شوقى) فى الغزل بارداً فاتراً ضئيلاً ؟

إن قصيدته الشهيرة :

ياجارة الوادى

ليس فيها دفء الحب ، ولكن فيها حب الطبيعة .. وليست فيها أنثى تثير خيال

شاعر . وهو يقول فيها :

ودخلت في ليلين فرعك والدجى ولثت كالصبح المنور فالك
هو يعانق الليل لا أحضان امرأة ، وهو يقبل الصباح ولا يقبل شفتين ظامشتين
للقبل .

.. الصورة رائعة . . رائعة . . والعاطفة ضائعة . . ضائعة .

كيف أعانق الليل وأقبل الصباح ؟

ولكن براعة شوق وعبقريته طغت على كل شيء ، حتى على العاطفة ، وأنت
تسمع قصيدته

مضناك جفاه مرقده

وبكاه ورحم عوده

فترق معه ، حتى تسيل منك الدموع ، ولكنه في موسيقاه ، وألفاظه وصوره
البارعة - لم يلمس قلباً ، ولم يصل إلى حس عاشق ولهان .
هذا العبقري الشاعر لم يعشق امرأة واحدة يحس معها الدفء والحنان
والحب ، ولكنه عشق الجلال مجرداً ، فتصوره في الطبيعة أحياناً ، وفي مشاعر
الآخرين أحياناً أخرى ، ولكن .

أين المرأة التي أحبها شوق ؟ ومن المرأة التي أحبها شوق ؟

رحلة حياته كلها كانت بلا امرأة معشوقة ، ولو كانت في الخيال ، وهو أعشق
عشاق الجلال . . !

قلت لك : إنني لأصدق أنه كان بلاعشق وبلا غرام .

وقلت لك : إنه لم يصل إلى فن الغزل حتى في رواياته الغرامية الشعرية .
إن (شوق) كان عبقرياً بلا امرأة ، وتلك إحدى عجائب الزمان . والعجبية

السابقة هي المتنبي .

ولكن العبقرية قد تتفجر أحياناً من الذات ، وليس للعبقرية قاعدة ، لأنها شذوذ ، وما كان شذوذاً يمكن أن يحدث ليخالف كل قاعدة تعرفها العقول . ولذلك اعتقد كثيرون من النقاد أن (شوقي) لم يكن يحسن هذا اللون من الشعر وهو شعر الغزل .

يقول بطرس البستاني .

« تغزل شوقي ، ولكنه لم يبرع في هذا الفن براعته في غيره من الأغراض ، لأن الغزل من الوجدانيات التي ينبغي للشاعر أن يحس تأثيرها في نفسه ، فإن لم يكن لألم الحب من سلطان على قلبه فهيئات أن يأتي بغزل عاطفي صادق اللوعة ، متواصل الحنين . وشوقي لم يكن من المتيمنين المتألمين ، ولا من العشاق الروحانيين ، وإنما هو صاحب لذة يتتبعها في مواطنها ، فما تحرمه سعة يده الوصول إليها . فلم يشعر بذلك الألم الذي يشعر به من يغرى بشيء . ويصعب عليه نيله ، فيأسف عليه ، ويأسى ، وتثور عاطفته وجداً وكمداً . فيلفظها لسانه ، قطعاً دامية من أفلاذ كبده !

ولم يكن (شوقي) مجاهراً بلذته . فيستر عجزه عن بث لواعجه بغشاء من القصص الغرامية ، لأن البيئة التي وجد فيها قضت بالتستر فشاعر الخديو لا يصح له أن يكون مستهتراً ، بل لا يصح له أن يعنى بالنسيب . وربما استهل مدحته متغزلاً ، وأراد نشرها في جريدة الحكومة ، فتوزع بظانة الأمير إلى مدير المطبعة أن يسقط الغزل منها ، كما أصاب قصيدته : خدعوها بقولهم حسناء . ومثل هذا التعرض من الحكومة يحمد نشاط الشاعر إلى النسيب ، ويحملة على الاقتصاد فيه ، وقلة التبسط في شرح أحواله .

وشوقي في غزله مقلد متكلف ، يترسم (البهاء زهير) في سهولة ألفاظه ، ولين

تعايره ، وخفة أوزانه ، وابتذال معانيه :

مُضْنَى وليس به حراك . لكن يَخِفُّ إذا رآك
فكأنه ينظم هذا الشعر ، لارغبة في النسيب ، وإنما ليتغنى به المغنون .
ويعارض أبا الحسن الحصرى القيروانى فى قصيدته الشهيرة : يا ليل الصب متى
غده ؟ والمعارضة ضرب من التقليد :

مضناك جفاه مرقده وبكاه ورحم عوده
ومحاول أن يحتذى على مثال ابن أبى ربيعة فى زيارته الليلية ، فيطرق فتاة
الحى ، وترجره النساء ، حتى إذا عرفته طلبن منه الأمان للعذارى ، ولكنه يقصر
عن عمر أشواطاً ، سواء فى الصراحة والصدق ، أوفى جبال القصص والحوار .
ويصطنع غزل الشعراء والفرسان ، فيمزج ألفاظ الحب بألفاظ الحرب ، وهو
لم يشهد وغى ، ولا حمل سيفاً ولا رمحاً :

فلکم رجعت من الأسنة سالماً
وصررت عن هيف القدود طعينا
ويدخل الحكمة فى نسيه كالمتنبى :

وأعلم أن الغدر فى الناس شائع
وأن خليل الغانيات مضيع
وينحوشن مثله ، فيقاتل العيون ، كما قاتل أستاذة الخدور :
ياقاتل الله العيون فإنها
فى حر مانصلى الضعيف البادى
ويتغزل بالطبيعة كأنها امرأة فعل ابن الرومى :

ودخلت فى ليلين فرعك والدجى
ولثمت كالصبح المنور فاك

وهو مقلد في وصف محبوبه ، يعنيه أن ينعت شعره وعينه وثغره ورضابه
 وقوامه . ويخصه بالتشاييه المبتدلة : بالليل . والسيوف واللؤلؤ والكوثر والغصن :
 وقلاً يلتفت إلى وصف العواطف والأهواء وما يعتاد النفس من شوق وصبابة وغيره
 وحرقة وخوف وأمن وبأس ورجاء . أو إلى تصوير طباع محبوبه وما يلتقطه من
 حركاته وسكناته وغنجه ودلاله ، بيد أنه يذكر طول ليله ، ويراعى النجم ،
 ويتحدث إلى الحمام ، ويشكو ويئن ويتظلم متشبهاً بالشعراء المتيمين .
 ولا يخلو غزله من جبال الفن وحسن الصناعة ، وإن خلا من صدق العاطفة ،
 وحدة المعنى ، وقد تخضع له أبكار المعاني . ولاتستسلم بنات العواطف كقوله :
 صوني جبالك عنا إنا بشر من التراب وهذا الحسن روحاني
 أو . .
 فابتغى فلکاً ، تأوينه ملکاً لم يتخذ شركاً ، في العالم الفاني

١٣ - موسيقيون ومطربون

قراءة ما بين السطور هواية ممتعة ، وعندما كنت أبحث عن الشخصيات في حياة (شوقي) لم أحاول معرفة تواريخ حياتهم وأحوالهم . ولكنني أريد أن أعرفهم . في حياة (شوقي) شخصيات لاحصر لها . ومنهم الأعلام المشهورون . وفيهم المغمورون ، وبعضهم نسيه التاريخ . لأن التاريخ ينسى في بعض الأحوال . كانت في مصر عند بدايات القرن العشرين مطربة اسمها (ليلى لزمي) أطلقوا عليها لقب طائر الجنة . ونعتوها بنعت بلبله الشرق . ويبدو أن أمير الشعراء كان معجباً بها . فأنهز فرصة احتفال الجمعية الهلال الأحمر بالإسكندرية . وكانت ليلى مطربة الحفل . فكتب لها تحية من بدائع شعره . قال فيها :

رُدَّتْ الروح على المضنى معك أحسن الأيام يوم أرجعك
وهي قصيدة على نغم ابن زيدون في قصيدته الذائعة :

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
وكان خليل مطران هو الذى عرف (شوقى) بهذه المطربة . بل إنه هو الذى
أطلق عليها لقب طائر الجنة .

وخلال حياته اقترب شوقى كثيراً من أصحاب الطرب والغناء . قبل أن يصطفى
بلبل الشرق الصداح محمد عبد الوهاب . وسبب ذلك فيما اعتقد هو موسيقى
الشعر ، فقد كانت أذن أمير الشعراء تسمع اللحن وتصوغه شعراً . وهى موهبة
خارقة لم يصل إليها إلا كبار الشعراء ومنهم (يوهان وفجانج جوته) شاعر الألمان .
فقد كان صفيه وصديقه الموسيقار الأعظم (لودفيج فان بيتهوفن) . وكان الوزير
جوته يتحمل بيتهوفن فى هفواته ، وقد أعدَّ له بيانو خاصاً فى بيته ليعزف عليه أحد
سواه !

وهكذا فعل (شوقى) مع عبد الوهاب ، على خلاف فى الصورة . فإن
عبد الوهاب جم الأدب ، عظيم الأخلاق ، وليس سوقيًا مثل بيتهوفن .
ولكن شخصيات الفنانين فى حياة (شوقى) كثيرة ، وكلهم ليسوا على مستوى
عبقريه شوقى ، ولذلك كان عبد الوهاب هو اللحن والصوت الذى التى فى النهاية
وأمر الشعراء ، ولم يفهم كثيرون لماذا اختصه (شوقى) بهذه الرعاية ، ولم يتم
بأم كلثوم مع أنه قال : إن صوتها مثل الذهب الإبريز ؟

محمد عبد الوهاب موسيقى ومطرب ، وأم كلثوم مطربة وليست موسيقية ،
والشاعر يحتاج إلى الموسيقى قبل الطرب . ولو كان (شوقى) فى حاجة إلى مطرب
لاستطاع أن يقرب إليه (صالح عبد الحى) الذى كان أعظم من الصبى الناشئ
محمد عبد الوهاب .

الموسيقى هى التى جمعت بين (شوقى وعبد الوهاب) وليس صوت
عبد الوهاب ، ولذلك انصرف إليه أمير الشعراء ، وجعل له غرفة فى بيته ؛ لأن

موسيقاه كانت حياً لأمير الشعراء ، وأعظم شىء فى شعر شوق موسيقاه .
إن الشعر ليس مجرداً وقافية ، وإلا كانت ألفية ابن مالك فى النحو من عيون
الشعر .

الشعر نغم يرتديه اللفظ ، وينسجم هو والكلمة ، والنغم فى الشعر أسبق من
اللفظ . وكان (شوق) يغمغم قبل أن يكتب قصائده ، وهذه الغمغمة هى النغم ،
وهى السلم الموسيقى الذى يؤدى إلى الألفاظ والكلمات .
إننى أعتقد أن (شوق) استوعب الموسيقى العربية والموسيقى الأوربية حتى
ملأت كيانه ، وأنه كان يقول الشعر على النغم ، ثم تنسجم الكلمات والحروف .
فى الخمر يقول :

رمضان ولّى هاتما ياساقى مشتاقة تسعى إلى مشتاق
ويقول :

حف كناسها الحبيب فهى فضة ذهب
وليس للميزان الشعرى قيمة فى هذا ، فهناك ميزان آخر هو النغم والكلمة
المنطوقة ، وحرف كل كلمة من هذه الكلمات يتناغم هو وحرف آخر
إن موازين الشعر مثل سلام الموسيقى يعرفها الدارسون ، ولا يعرف كيف يحركها
الالقانون . وهذا هو سر الأسرار .

فى رثاء سعد زغلول يقول شوق :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاحها

وانثنى الشرق عليها فبكائها

وفى رثاء حافظ إبراهيم يقول :

قد كنت أؤثر أن تقول رثائى

يا منصف الموتى من الأحياء

وأنت ترى في رثاء سعد خشوعاً وخضوعاً في نغم الشعر ، مع ارتفاع للنغم الشعري إلى السماء باستخدام الألفات والهاءات في نهاية المقاطع . وفي رثاء حافظ استسلام وانكسار ، حتى إنه استخدم الهزمة المكسورة في نهاية المقاطع بسبب هذا الانكسار الذي كان يحس به أمير الشعراء ، ويرقيه في نفسه عند النهاية .
وأنت تسمع :

ولب الهدى فالكائنات ضياء

فتحس بأن نغمة الشعر تتألف هي والنور عن طريق التركيب اللفظي بكل حروفه المتناسقة التي تصل بك إلى الشطر الآخر من البيت :

وفهم الزمان تبسم وثناء

إن الدراسة الصوتية لشعر شوقي من الأمور الهامة . وقد التفت الدكتور إبراهيم ناجي إلى خصائص هذا الشعر العبقري . ووصفه بالموسيقية .

وعندما عقد مؤتمر الموسيقى الشرقية في القاهرة عام ١٩٣٢ ، كتب شوقي قصيدة حيا فيها المؤتمر ، وألقيت بدار الأوبرا يوم ٣ من أبريل ١٩٣٢ ، قال فيها هذه الرائعة المنغمة :

| | |
|----------------------------|----------------------------|
| نزل المنازل والريا آذار | يحدو ربيع ركابه التوار |
| يختال في وشي الرياض وطيبها | وتزفه الربوات والأنهار |
| سمح البنان بكل مازان الثرى | فالوشى يوهب والحلى يعار |
| ملاً الخائل من تصاوير كما | ملاً الرقارف بالدمى الحفار |
| في كل دوح دمية ومنصة | وبكل روض صورة وإطار |
| حدجته بالبصر الخائل مثلاً | حدجت بعينها العروس الدار |
| لبست له الآمال بهجة شمسها | وتزينت للقاءه الأسحار |

حبته بالنغم الهوائف في الضحى وترنمت بشنائيه الأوتار
 والماء يظفر جدولاً ويفيض من عين ويخبط في القنى ويغار
 جر الازار فكل روض حامل مسكاً وكل خميلة معطار
 في كل ظل مزهر مترنم ووراء كل نضارة مزمار
 وعلى ذؤابة كل غصن قبنة الصبح خلف بناتها والطار
 والنيل في الوادى نجاشى مشى في ركبه الرؤساء والأخبار
 سحبوا الطقوس ورتلوا إنجيلهم فتعالت الصلوات والأذكار
 هذه صورة موسيقية ، أو (لوحة) منغمة . تحكمها قافية عجيبة مثل القفلة عند

المغنين المبدعين .

وشوقى يقول في هذه القصيدة بيتاً من بدائعه المشهورة :
 لاتعشق الآذان إلا نغمة * كانت عليها في المهود تدار
 وهذا المعنى هو خلاصة الخلاصة في فنون الموسيقى عند الشعوب ، فكل شعب
 له موسيقاه التى ينشأ عليها منذ كان في المهد صبيّاً .
 لقد كان (شوقى) شديد الاهتمام بالموسيقى والموسيقين . وعندما افتتح معهد
 الموسيقى الشرقى عام ١٩٢٩ ، وكان الملك فؤاد هو الذى افتتحه ، ألف شوقى نشيداً
 خاصاً للمعهد ، ولحن النشيد (مصطفى بك رضا) رئيس المعهد . ومن مقاطع
 هذا النشيد فى تحية الملك يقول (شوقى) :

القانون سَلِّمْ عليك يا حامى القانون
 والعود اتكلم حياً مُعز الفنون
 والنأى اتقدم وقال : الله يصون
 وألقى الأستاذ (على الجارم) قصيدة شوقى فى هذا الحفل . وأبدع مافيا قوله
 عن فن الموسيقى :

لولا ابتسام الفن فيما حوله
 ظل الوجود جهامة وجفاء
 جرد من الفن الحياة وماحوت
 نجد الحياة من الجبال خلاء
 ألف شوقي أدواراً غنائية لكبار المطربين قبل عبد الوهاب ، فقد نظم لعبده
 الحامولي دور :

ياما انت واحشني وروحي فيك
 كما كتب له (موال) :

كل اللي حب انتصف وأنا وحدي اللي شكيت
 وقد غناها عبد الوهاب بعد ذلك .

وألف شوقي موالاً غناه الشيخ يوسف المنيلوي وهو :

ساهي الجفون ماكفاك الهجر ياساهي
 فرحان بتلعب وعن حال الشجي ساهي
 الليل يطول ياقر وأنا سهران عليك ياساهي
 حسك تقول مدعي يايجن العشاق
 القلب أهو جريح والكبد للساهي

وقد ألف شوقي للمطربة ملك مقطوعات شعرية بعضها بالفصحى وبعضها
 بالعامية . ومنها أغنية الليل التي يقول فيها :

الناس لليل تشكى وتجي له تحكى
 والليل لمن يشكى ويروح لمن يحكى
 بدرك بالليل طلعتة وبدري خبيته
 غاير بالليل قل لي تكونش حبيته

وكانت صلة شوقى بأهل الفن أصيلة وعميقة ، فهو يقدرهم حق قدرهم . وقد
كتب روائع فى رثاء الراحلين منهم .
قال عن عبده الحامولى :

ساجع الشرق طاز عن أوكاره
وتول فنٌ على آثاره
كان مزماره فأصبح داو
دكثيباً يبكى على مزماره
يسمع الليل منه فى الفجر: يالـيـ

ل فىصغى مستمهلاً فى فراره
كما قال عن عبد الحى حلمى المطرب الشهير ، خال صالح عبد الحى :
كان الندامى إن شدوت وعاقروا

سبان صوتك بينهم والراح
فما تقول مغنياً ومحدثاً
تتنافس الأسماع والأرواح

وعندما وصل (شوقى) إلى سيد درويش ، كان معه محمد عبد الوهاب .
ك خاطب سيد درويش قائلاً :

سيد الفن استرح من عالم
آخر العهد بنعماء البلاء
ربما ضقت فلم تنعم به
وسرى الوحى ففساك الشفاء
لقد استخلفت فتناً نابغاً
دفع الفن إليه باللواء

ناحل كالكرة الصغرى سرى
صوته فى كرة الأرض الفضاء
يستحى أن يهتف الفن به
وجال العبقريات الحياء

وهو فى هذه القصيدة التى كتبها عام ١٩٣١ فى ذكرى سيد درويش ،
يتحدث عن محمد عبد الوهاب ، ويتنبأ له بالعبقرية .

كانت أنغام الموسيقى من أعظم الشخصيات فى حياة أمير الشعراء . وعندما
تذكر (عبده الحامولى) فى ساعة صفاء كتب يقول :

يا طير مالك لا تهيج لك الجوى
نسبات أسحار خطرن رفاق
مات الحمولى والغرام فلا الصبا
فى العالمين صبا ولا العشاق

وهو يقصد نغمة (الصبا) وهى من نغمات الموسيقى الشرقية .

رأى عازف عود يحسن العزف ، فقال :

وصاحب عود به عازف يحركه عن هزار غرد
أنامله تلتقى فى الفؤاد وريشته تنبرى للكبد
أما الناي فقد كان من عشاقه :

يانائى كيف عرفت أرباب الهوى

وحكايتهم فيه حكاية صادق ؟

فكأن صوتك أنه بعث الجوى

وكأن غابك من ضلوع العاشق

وكان شوقى يستمتع بسماع الموسيقى من العازفين ، وقد اشتهر (أمين بزرى)

الذى كان من اغنياء البلد م نكبه الدهر - بالعبقرية فى العزف على الناي . حتى
احترف العزف فى الأفراح والحفلات . وأعجب أمير الشعراء بعازف الناي ، فقال
له :

سألوا أميناً كيف يبكى الناي فى
يده ويستبكي الملا بشجونه
فأجاب خلى لاعدمت وداده
أبكى على عيني بكل عيونه

أما الكمان فقد كان عازفه الأشهر فى ذلك الزمان هو سامى الشوا الذى لقب
بلقب أمير الكمان . وقد وصفه أمير الشعراء فى قصيدة من بدائعه قال فيها :

يا واحد الفن فى أزجى معازفه
هذا أوان الثناء العدل قد آنا
يارب ليل سمرنا الراح فاختلفت
على بنانك للسُّمار ألحانا
تلك اللعية من عود ومن وتر
لولا بنانك لم نجعل لها شانا
قد آنت رحمة فى الصدر فاتكأت
بجانب الأذن تستوحيك شيطانا
كأنها غش طير هاج آهله
من كل ناحية ينساب أشجانا
ضممتها وتواصت راحتك بها
ضم الوليدة إشفافاً وإحسانا

تملّ عليها الذى يوحى إليك به
 كأن داود والمزمّار مابانا
 حرّكتها فأثّرها الروح فاندفعت
 تبكى وتضحك أوتاراً وعيدانا
 مصرية النبر وهابية عذبت
 شدوا ونوحاً وترجيحاً وتحنانا

هذه الوصف البديع للكان وعازفها ، وما يتحرك فى مشاعره ، وما يحرك به
 أوتاره ، حتى تتبعث الروح فى النغم - يصل بأمر الشعراء إلى محمد عبد الوهاب ،
 فهذه الكمان مصرية النبر ، ولكنها وهابية عذبة الشدو .
 لقد تجمعت كل أنغام الموسيقى والألحان عند (شوق) فى شخص واحد هو
 محمد عبد الوهاب . وهذه الشخصيات العديدة التى عرفها واستمع إلى عزفها
 أغنائها تنتهى به دائماً إلى عبد الوهاب ، وكان (شوق) على حق فى تصوّره .
 لأنه اكتشف العبقرية التى قلما يوجد بها الزمان !

١٤ - عرابي . . وسعد زغلول

جنت على (شوقي) نشأته الأرستقراطية ، ومولده بباب إسماعيل خديو مصر ، وعمله في القصر ، واعتباره شاعر الأمير ، ومازال الكتاب والدارسون ينظرون إليه هذه النظرة . وكنت واحداً منهم ، فكتبت مقالاً في جريدة البلاغ عنوانه (شوقي شاعر الملوك) وغضب الدكتور محمد صبرى السورى بعد أن قرأ المقال ، وجاءنى مهدداً ومتوعداً ، وقال لى :

- حرام عليك !

ولم أكن أعلم أن الدكتور (صبرى) يعد كتابه (الشوقيات المجهولة) ، وأنه فرغ نفسه لهذا العمل العظيم ، ثم استواه (شوقي) ، فجرى وراء أسرارهِ ، وبحث عن تفاصيل حياته ، وتحدث مع معاصريه فعرف منهم ما لم يكن يعرف . كان ذلك فى عام ١٩٥٠ .

وفى تلك الأيام تلقيت رسالة من صديق الراحل الأستاذ راشد رستم فيها قصاصة مقالى ، وعليها اسم راشد رستم بخطه ، وبغير تعليق .

وراشد رستم هو حفيد (عثمان باشا رفقى) وزير حرية توفيق الحديو ، وغريم أحمد عرابى .

عرفت فى تلك الأيام أننى يجب أن أعرف تاريخ مصر على حقيقته بنفسى ، لا عن طريق كتب المؤرخين أو الباحثين المعاصرين . وتعلمت قراءة الوثائق ، حتى أصبحت من هوايائى ، إلى جانب مايكتبه الثقات من أصحاب التاريخ الذين لا يميل بهم الهوى .

وعندما كتب (سلامة موسى) مقالاً فى جريدة الأخبار عن أمجاد (محمد على) وأسرته ، ليستجدى به رتبة البكوية من فاروق ، اشتد جنى عليه ، وكتبت مقالاً لم أشرفه إليه ، ولا إلى مقاله ، وكان عنوانه : تاريخ الشعب لاتاريخ الملوك ، ونشرته فى جريدة البلاغ . وفهم (مصطفى أمين) بذكائه الصحفي البارع ماأقصد إليه ، ولكننى كنت أهرب من تهمة العيب فى الذات الملكية ، فجعلت الموضوع مما يشبه الدراسة العلمية وطالبت بدراسة تاريخ الشعب المصرى لاتاريخ ملوكه وحكامه .

كنت أعشق شعر شوقى ، ولكننى لأعزف الشاعر الذى ثارت من حوله الزواجر . وعندما قلت - إنه شاعر الملوك - كنت أأخذ وسيلة للتنفيس الثورى ضد حكم الملك فى مصر ، وقد ظلمت (شوقى) .

ولكن ظلمى كان أخف وطأة من ظلم (طه حسين والعقاد والمازنى) وغيرهم لأمر الشعراء .

قلت لك : إن أرستقراطية شوقى جنت عليه ، وساعد على ذلك أن معاصره الشاعر العظيم (حافظ إبراهيم) كان شعبياً ، بل كان ابن بلد أصيلاً . والمقارنة

العابرة بينها تجعلك تعتقد أن (شوقى) هو شاعر الملوك ، وحافظ شاعر الشعب .
وقد أطلقوا على (حافظ) عندما تصدى لحادثة دنشواى لقب (شاعر الوطنية
ومشهر دنشواى فى البرية) ، كما أن إطلاق لقب أمير الشعراء على (شوقى) ،
ولقب شاعر النيل على حافظ جعل المقارنة واضحة بين الشاعرين فى أذهان
الناس .

ولكننا اليوم ، وبعد هذه السنوات القليلة التى مضت بعد عصر (شوقى
وحافظ) ، نستطيع أن نقول : إن (شوقى) كان شاعر الشعب ، وهو أمير
للشعراء .

إن النشأة الأرستقراطية لا تمنع من أن يكون الفنان فناناً للشعب . وقد أصبح
(يوسف وهبى) فنان الشعب بسبب ما أداه من أعمال جليلة على خشبة المسرح
لجماهير الشعب المصرى . وقد لا يكون الفنان المتواضع الناشئ فى بيئة غير
أرستقراطية فناناً للشعب ، بل فناناً للأرستقراطية ذاتها ، حين يقدم للطبقة
الأرستقراطية ما يسليها ، فيصبح مضحك الملك ، أو نديم الباشوات .
كان الشيخ على الليثى فى الجيل الماضى نديم الخديو إسماعيل وشاعر القصر ،
وقد وصفه العقاد قائلاً :

« لانحسب أن فى شعراء الجيل الماضى شاعراً يمثل مدرسة الندمان كما كان يمثلها
الشيخ على الليثى الذى ارتقى فى هذه الصناعة حتى نادم إسماعيل وتوفيقاً ، وبقي من
نواده ودعاباته ما يذكره المتأدبون والمعنيون بأخبار القصور حتى فى أقصى
الصعيد » .

وقد عرف الشيخ على الليثى (والد شوقى) فى قصر عابدين ، ثم عرف شوقى
وعرفه شوقى ، وقال الشيخ : إن شوقى سيحرق خرقاً فى الإسلام .
أدرك (شوقى) منذ بدايات حياته وظيفة شاعر القصر ، وعرفها فى الشيخ على

الليثي ، ولم يكن في حاجة إلى من يعرفه بها ، ولكن الشاعر الشاب طلب من الخدوى إعفائه من ارتداء الملابس الرسمية التي كانت من ضرورات الظهور في القصر وحفلاته الرسمية ، وأذن له الخديو عباس حلمي بذلك . وهذه الثياب الرسمية مما يغرى شاباً مثل شوقي بالتظاهر أمام أقرانه بالأناقة ، ولكنه ابتعد عنها لسبب نفسي ، هو أنه كان يشعر بحياته الخاصة مع الناس ، مع ارتباطه العائلي الموروث بقصر عابدين .

وشوق شاعر الأمير كانت له وظيفة رسمية في القصر هي (رئيس القلم الإفرنجي) ، ولم يقبل أن يكون نديماً وشاعراً بلا عمل ، وتكتب على باب غرفته الجملة الشهيرة التي كتبت على باب الشيخ على الليثي :

« إنما نطعمكم لوجه الله ! »

وليس معنى ذلك أن (شوقي) لم يكن يحترم الشيخ (على الليثي) ، فقد ذكر بنفسه أنه كان يرى فيه إنساناً عظيماً فاهماً للشعر مقدراً للشعراء ، ولكن تجربة الشيخ في قصر عابدين علمت (شوقي) درساً عظيماً ، وساعدته نشأته وثقافته على استيعاب الدرس ، فأنفصل بوجدانه وهو الأرستقراطي المرفه عن كل مظاهر القصر ، وكان يرتدى الملابس الخشنة ، ولا يهتم باختيار الثمن من الثياب ، وهو قادر على ذلك .

قال (زكي مبارك) : إنه عندما رآه أول مرة في بيت عبد اللطيف بك الصوفاني بالحلمية الجديدة لم يصدق أنه أمير الشعراء ، وتمازحاً معه ، وقال له : إنه يملك ثلاثة جنيهاً يتبرع بها لأمير الشعراء حتى يشتري لنفسه بدلة جديدة . والشعراء لهم أحوال مثل أحوال الصوفية .

شوقي الذي كان يستحم بماء الكولونيا ، ويعيش في قصره حياة الأمراء ، رفض ارتداء الردنجوت والفراك والملابس المقصبة بالذهب في قصر عابدين !

شخصية فريدة نادرة هذه الشخصية .

رؤساء الوزارات والوزراء ومشايخ الأزهر كانت لهم ملابس التشريفات المقصبة بالذهب ، وأمير الشعراء شاعر القصر يرفض هذه الثياب !

وعندما منح (شوقي) لقب الإمارة من السلطان عبد الحميد الثانى لم يستخذه هذا اللقب ، بل كان لقبه الرسمى هو أحمد شوقي بك ، وكان لقبه بين خاصته هو لقب الباشا ، الذى لم يحصل عليه من خديوى مصر ، لأنه نال لقب الأمير وهو أعلى وأعظم ، وقد أنعم عليه بهذا اللقب السلطان عبد الحميد .

الشاعر الذى فر من ملابس التشريفات ، والثياب الرسمية - هو نفسه الذى فر من لقب الإمارة ، واكتفى بإمارة الشعر .

ولم يكن هناك ما يمنع (شوقي) من التلقب بلقب الأمير ، فقد كانت مصر مملوءة بالدوقات والبارونات والأمراء . وكان الملك حسين بن على املك الحجاز قد أنعم بلقب الإمارة على (حبيب لطف الله) ، ليتوارثه عنه أبنائه وأبناء أبنائه إلى ماشاء الله ، وأصبح فى مصر أمراء يحملون اسم لطف الله . . وكان فيها البارون منشة . . والكونت . . إلى آخر هذه الألقاب .

لماذا أخفى شوقي لقب الأمير الذى استحقه وحصل عليه فى مجتمع كان شديد

الاحتفال بالألقاب ؟

إننى أعتقد أن (شوقي) كان يهमे لقب واحد هو : أمير الشعراء ، وهو اللقب الذى يميزه بين كل الأمراء ولم يكن يهमे أن يقال : الأمير أحمد شوقي . يرى (عباس محمود العقاد) أن (شوقي) كان يحس بالوطنية المصرية ، كما يحسها التركى المتمصر من طبقة الحاكمين ، أو المقربين من الحكومة . وأن مصر التى كان (شوقي) ينظم فى تاريخها هى مصر الأسر المالكة ، والعروش الحاكمة ، وليست بمصر الشعب والسلالات الوطنية ، أو هى مصر التى يعنى بها رجل البلاط

يقرن الحاضر إلى الماضي بهذه السلسلة . (البلاطية) في العصور كافة ، وليست مصر التي هي وطن لكل مصري كبير أو صغير وحاكم أو محكوم .

كان العقاد من خصوم (شوقي) ، ولذلك فإن رأيه فيه يحمل معنى الخصومة . ولا يصح في أى مذهب أن يكون الخصم حكماً ، ولذلك لم أحدثك عن (طه حسين) كشخصية في حياة (شوقي) ، ولم أحدثك عن (مصطفى صادق الرافعي) أو العقاد أو المازني . وكلهم من كبار الكتاب الذين غاصروا أمير الشعراء وخاصموه . وقلت لك : إننى لم أتحدث عن (محمود سامي البارودي) الذي يقول معظم النقاد : إنه هو الذى مهد الطريق (لشوقي) ، لأننى أحسست بأن (شوقي) لم يأخذ عن البارودي شيئاً ، وكلاهما أخذ من نبع واحد ، ولكن أمير الشعراء أخذ عن (إسماعيل صبرى) في مرحلة تمازج روحى وفنى مشترك .
ويكنى أن يقول العقاد :

« لم يخلع « شوقي » كسوة التشريفة قط في قصيدة من قصائده ، ولايت من أبياته ، فليست الصفات ولا الأخلاق ولا الآراء التى يثني عليها هى التى تمثله في حقيقة نفسه ودخيلة ضميره ، ولكنها هى الصفات والأخلاق والآراء التى يلبسها المرء يوم التشريفة ، ويتقلدها وهو قائم على منصب الوظيفة » .

يكنى أن يقول العقاد هذا الكلام لأبتعد عن محاسبته ، فهو يحاسب أمير الشعراء على حقيقة نفسه ، ودخيلة ضميره ، وسبحان من يعلم حقائق النفوس ودخائل الضمائر ، ولكن العقاد عاد بعد سنوات فبدل رأيه في (شوقي) ، كما فعل صاحب إبراهيم عبد القادر المازني عندما هاجم (حافظ إبراهيم) ثم عاد فقال : إنه كان من نزع الشباب !

لم يضع (شوقي) على كتفيه خلعة التشريفة قط ، لاحقاً ولا معنى ، وقد ذكرت لك أنه استأذن الخديو عباس حلمي في إعفائه من ارتداء ملابس التشريفة

والملابس الرسمية فأذن له .

والناحية التي تحدث عنها العقاد وهي وطنية (شوق) ، سبق أن أثارها الزعيم (محمد فريد) على صفحات جريدة اللواء ، فكذب مقالاً غمز فيه وطنية شاعر الأمير ، ورد عليه (شوق) برسالة نشرت في جريدة المنبر في ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٠٨ وقال :

«إن وطنيتي لن تحمل بها التهم ، ولن ترقى إليها الشكوك والريب ، وهي التي أرجو أن أموت عليها وعلى الشهادة معها يوم كلتاها حق » .
ثم خاطب (محمد فريد) قائلاً :

«وطنيتي هتف بها البدو ، وتغنى بها الحضر ، وجاوزت ذلك إلى الأعجام من ترك وفرنس ، فهي معلقة على جذران قصورهم ودورهم يقرؤها هنالك القارئون !
وكان (محمد فريد) يهاجم (شوق) في شخص الخديو (عباس حلمي) الذي تنكر (لمصطفى كامل) وللحزب الوطني . ثم سلط على (محمد فريد) الزعيم الوطني زبانية الشيطان ، فسجنوه ، ثم اضطروه إلى الهجرة من مصر والإقامة في برلين شريداً ضائعاً .

وعندما توفي (محمد فريد) غريباً مضطهداً عام ١٩٢٠ في برلين ، ولم تسمح السلطة حتى بعودة نعشه إلى مصر إلا بعد سنوات - كتب شوق قصيدة يرثيه فيها ، قال في مطلعها

كل حيٍّ على المنية غادى تتوالى الركاب والموت حادى
ويقول شاعر الأمير وأمير الشعراء في هذه القصيدة ، غير عانى بالسلطة ، أو وظيفة التشريف :

مصر تبكى عليك في كل خدر وتصوغ الرثاء في كل نادى
لو . تأملتها لراعك منها غرة البر في سواد الحداد

مُنْتَهَى مابِه البلاد تُعْزَى رجلٌ مات في سبيل البلاد
'وهذا الشعر السياسى الصريح الذى قاله (شوقى) فى رجل سبق أن نال من
وطنيته يحمل دلالات الأصالة المصرية عند أمير الشعراء .

وقف (شوقى مع مصطفى كامل) ، وكان قد عرفه فى باريس خلال شهر
سبتمبر سنة ١٨٩٣ ، وسبب ذلك أن الطلبة المصريين فى فرنسا أسسوا جمعية فى
مدينة مونبلييه أطلقوا عليها اسم جمعية التقدم المصرى ، وأنشئ لها فرع فى باريس
تحت رئاسة (أحمد أفندى شوقى) المصرى (أحد موظفى السكرتارية - إدارة
التحريرات - الخديوية) ونزىل باريس . وخلال تلك الأيام أقامت الجمعية حفل
تعارف بين أعضائها ، حضره (مصطفى أفندى كامل) محرر جريدة (المدرسة)
الغراء الذى قال مخاطباً أعضاء الجمعية :

ليت الكواكب تدنولى فأنظمها عقود مدح فبأرضى لكم كلى
وأنت ترى أن الوطنية هى التى جمعت بين (مصطفى كامل وأحمد شوقى)
وهما فى مطالع الشباب ، وظلت الصداقة قائمة بينهما حتى آخر لحظة فى حياة الزعيم
الشاب . ويصف (شوقى) ليلة وداعه لصديقه (مصطفى كامل) فى رسالته التى
وجهها إلى (محمد فريد) حين اتهمه فى وطنيته ، فقال :

« عدت فقيد الوطن (مصطفى) ذات ليلة وهو مختصر ، لا يأتى ولا يذر ، وكان
بحجرة نومه شقيقه ووارث عواطفه ومبادئه الأخ (على بك) وثلاثة من كرام
الأصدقاء ، وكنت قد قمت للفقيد الكريم بخدمة أراها أنا لا تذكر ، واعتبرها هو
أنها لاتصدر إلا عن أوفياء الرجال وشجعانهم ، فسر خاطره وانشرح صدره ،
وامتد بنا السهر إلى مابعد منتصف الليل ، حتى إذا استأذنا من المريض الكريم قال
لى بمسمع من الإخوان الأربعة : هكذا فليكن الرجل ، وهكذا فلتكن الوطنية »
وكان الزعيم (مصطفى كامل) صاحب جريدة اللواء يقول :

« (شوقى) همزة اللواء طالما تباهى به وافتخر ، واعتز به وانتصر ، وصالح
يوطينيته ما ظهر منها وما استتر ، وهو أصدق من نظم فيه ونثر ، فى وقت عز فيه
الصادقون » .

ثم وقعت الواقعة التى يختلف عليها الكتابُ والباحثون ، وهى قصائد (شوقى)
عن (عرابى) بعد عودته من المنفى فى ٣٠ من سبتمبر سنة ١٩٠١ ، ولا يجوز أن
تحدث عن أمير الشعراء وموقفه من (عرابى) بعيداً عن السياسة وظروفها وأحوالها
عند عودة (عرابى) وزعماء الثورة من المنفى ، لأن بعض الناس يغضبون غضباً
شديداً عندما يسمعون قول (شوقى) فى (عرابى) :

صغار فى الذهاب وفى الإياب

أهذا كل شأنك يا عرابى ؟

وقبل مهاجمة (شوقى) لعرابى . هاجمه (مصطفى كامل) بل إن اللواء (محمد
فهمى المهندس باشا) رئيس أركان حرب الجيش المصرى ، وأحد زعماء الثورة
العرابية هاجم (عرابى) هجوماً شنيعاً ، واتهمه بالجهل مما تسبب فى هزيمة معركة
التل الكبير التى لم تدر رحاها . وكان (محمود فهمى المهندس) وهو الذى أقام
استحكامات كفر الدوار ، فلم يستطع الغزاة المعتدون الخروج من الإسكندرية بعد
احتلالها فى ١١ من يوليو ١٨٨٢ ، لعبور الدلتا إلى القاهرة . كما أنه قطع المياه
العذبة عن الإسكندرية عزلها عزلاً عسكرياً تاماً . ثم أراد سد قناة السويس عند
بورسعيد ، حتى لا يدخل منها الأسطول البريطانى ولكن (عرابى) تلكأ وصدق
وعود ديلبس بأن الأسطول لا يستطيع دخول القناة لأنها دولية .

وعندما تجسم الخطر أصدر (عرابى) أوامره للواء (محمود فهمى المهندس
باشا) بسد قناة السويس عند بورسعيد ، وأعد لهذه العملية أربعين ألف فلاح
معهم القشوس والمقاطف . وعندما بدأ اللواء (محمود فهمى المهندس) فى تنفيذ

خطته ، وخرج من التل الكبير ومعه ياوره الخاص متجهاً إلى الإسماعيلية ، فوصل إلى بلدة (المسخوطة) على الطريق التي بها وأول كتيبة بريطانية نزلت على الشاطئ الغربى لقناة السويس . وكان الأسطول البريطانى قد وصلت بعض قطعه إلى الإسماعيلية ، ووقع اللواء (محمود فهمى المهندس) فى أسر الأعداء ، وكان أول أسير . ثم بلغت الغفلة (بعراى) أنه لم يبحث عن رئيس أركان حربه ، حتى وقعت كارثة التل الكبير .

وهذا لا يقلل من قيمة (عراى) كزعيم أيقظ الشعور الوطنى فى مصر ، لأن الانتصارات والهزائم لها ظروفها وملابساتها . وقد ظل الشعب المصرى مؤمناً بحركة عراى وهو فى منفاه ، حتى ظهر (مصطفى كامل) ليقود النضال الوطنى ضد الاحتلال .

وكان يمكن أن يستقبل الشعب المصرى الزعيم (أحمد عراى) العائد من المنفى استقبال الأبطال برغم وجود الاحتلال ، ولكن الذى حدث خلال تلك الفترة كان محيراً للألباب .

فى سبتمبر سنة ١٩٠١ كان ولى عهد إنجلترا فى جزيرة سيلان ، فالتقى منه (عراى) العفو فعفا عنه . وقد غادر (عراى) سيلان إلى مصر فى ١٧ من سبتمبر ، ولكنه قبل قيامه أدلى إلى صحيفة (التيمس أوف سيلان) بتصريحات أثنى فيها على الاحتلال الإنجليزى .

وكان لهذه التصريحات وقع سيئ فى جميع الأوساط خصوصاً أن حركة مصطفى كامل ضد الاحتلال كانت على سابق وقدم .

ثم وصل عراى إلى السويس فى ٢٩ من سبتمبر ١٩٠١ ، فأدلى إلى مراسل (التيمس) اللندنية بتصريح نشر فى ١١ من أكتوبر وقال المراسل :

« صرح لى (عراى باشا) مع السرور بإعجابه بحكم الإنجليز فى مصر ، كما

أعجب به في جزيرة سيلان ، ويظهر أن ما حصل له في مدة الثمان عشرة سنة التي أقامها في المنفى بتلك الجزيرة جعله صديقاً حميماً لبريطانيا . »

أما ما حدث في القاهرة فكان مصيبة أكبر : فبعد وصول (عرابي) في مساء ٣٠ سبتمبر ١٩٠١ ، لم يكف بتصريحاته السابقة التي أثارت سخط الرأي العام في مصر ، بل إنه أدل بحديث إلى جريدة المقطم وهي لسان حال الاحتلال البريطاني نشرته في ٢ من أكتوبر ، وجاء فيه كما يقول المحرر الذي تحدث مع (عرابي) : « ولا فرغ من شرح سفرته قلنا له :

— هل وجدتم مارأيتموه في مصر في هذين اليومين مختلفاً عما كان عليه حين مفارقتكم لها ؟
فقال :

— إن عائلتنا كبيرة . . وقد قابلت أكابرهم الذين جاءوا السويس للتسليم على ، فسألته عن الأحوال بالتفصيل والإجمال ، فوجدتهم متفقين في الجواب . سألتهم : أصحيح أن السخرة ألغيت ؟ فقالوا : نعم صحيح ، قلت : والكرباج ؟ قالوا : بطل من زمان طويل ، قلت : وكيف تحصل الأموال من الأهالي ؟ قالوا : بالحق والعدل ، وكل إنسان يعرف ماله وما عليه ، فسألته : وكيف الاستبداد في الأحكام الآن ؟ أجابوا : لم يتبق للاستبداد أثر في البلاد ؛ فكل شيء مقيد بقانون ونظام ؛ فشكرت الله حينئذ ، لأنه حقق منأى وأرأني قبل بمآق ما ظلمات كنت أتمناه لبلادي ، وقلت هذا هو الإصلاح ، ولكن الحكمة له جل جلاله قضى أليته على يدي بل على يد الذين نازلناهم في ساحة القتال ، وكانوا لنا أعداء ، فصاروا لمصر اليوم خير الأصدقاء . »

وبعد أن نشرت هذه التصريحات على لسان زعيم الثورة العرابية في جريدة المقطم وهي لسان حال الاحتلال البريطاني قامت قيامة الدنيا في مصر ، ويقول

المعاصرون : إن عرابي أصبح سجين بيته ، لا يستطيع مواجهة الناس . ونفر منه أعز أصدقائه الذين استمروا على صداقته في المنفى ، وكان المنشاوي باشا كبير كبراء طنطا من أقرب الناس لعرابي ، حتى إنه طلب منه وهو في منفاه أن يرسل إليه بعض أشجار المانجو لمزارعه ، فبعث إليه (عرابي) بألف شجرة كانت بواكير زراعة هذه الفاكهة في مصر .

ولكن المنشاوي باشا رفض مقابلة (عرابي) بعد عودته من المنفى خوفاً من سخط الناس عليه .

ليس هناك شك في أن هذه الأحاديث والتصريحات الصحفية كانت مؤامرة استعمارية ، استغل فيها (أحمد عرابي) ، فلا يعقل أن يصبح زعيم ثورة واحداً من أعوان الاستعمار ، بل إنه لم يكن هناك ثمن لذلك ، فقد ظلت ممتلكات (عرابي) مصادرة حتى أفرج عنها بعد قيام (ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢) ، وعاش الرجل سنواته الأخيرة عيشة الفقر والكفاف .

وماذا كان يستطيع أن يفعل لو نشرت مثل هذه التصريحات على لسانه ؟ لم يكن في استطاعته تكذيبها ، وإذا كذبها فمن الذي ينشر له التكذيب ؟ لقد حوَّصر الرجل حصاراً قديماً وهو في شيخوخته ومرضه وفقره . وهناك عرف دنيء عند من يصنعون مثل هذه الأحاديث الملفة التي ينسبونها إلى الزعماء ، وهذا العرف هو أن يدفعوا ثمنها إذا كانت بخط صاحبها ، أو كان مستعداً للاعتراف بها على الملأ .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث مع الزعيم أحمد (عرابي) ، بل حدث شيء آخر خطير ، ففي يوم ٣ من أكتوبر ١٩٠١ وهو اليوم التالي لنشر تصريحات عرابي في المقطم ، نشرت جريدة اللواء وهي جريدة (مصطفى كامل) افتتاحيتها تحت عنوان :

« مصر اليوم مسرح يمثل فيه آخر فصل من رواية : عاقبة خيانة عرابي وهو أسوأ
فصول هذه الرواية المخزنة . »

وفي ٥ من أكتوبر نشرت اللواء مقالاً آخر تحت عنوان :
(نظرات إلى (عرابي))

وفي هذا المقال مجدت الجريدة (محمود سامي البارودي) ، وقالت : إنه لم
يطالب بثروته ، ولارثته ونياشيته ، مع أنه أعظم العرابيين ثراء وعظمة .
ولكن (شوقي) هاجم (عرابي) قبل أن يصل من منفاه إلى مصر : فقد
نشرت جريدة اللواء في صدرها وافتتاحيتها يوم ٢٩ من سبتمبر ١٩٠١ ، وهو يوم
وصول عرابي إلى السويس قصيدة تحت عنوان ضخم (عرابي وماجنى) وكانت
القصيدة بلاتوقيع ويقول فيها شوقي :

أهلاً وسهلاً بجاميها وفاديها ومرحباً وسلاماً يا عرابيها
وبالكرامة يامن راح يفضحها ومقدم الخير يامن جاء ، يخرجا
وعد لها حين لاتغنى مدافعها عن الزعيم ولا تجدى طوايها
وهذه القصيدة السياسية ليست إلا تعليقاً على تصريحات عرابي لجريدة (التايمز
أوف سيلان) التي قال فيها : إن الإنجليز أصبحوا أصدقاء مصر . وإلى هذا يشير
شوقي في قصيدته قائلا :

من العجائب صاروا من أحبها فيما زعمت وكانوا من أعاديها
كأن ما كان من حرب ومن حرب عتب المودة لا يودي بصافيها
وبعد يومين اثنين وفي الأول من أكتوبر ١٩٠١ نشرت اللواء القصيدة الفظيعة
التي يقول فيها شوقي :

صغار في الذهاب وفي الإياب أهذا كل شأنك يا عرابي
عفا عنك الأبعاد والأداني فمن يعفو عن الوطن المصاب ؟

ولكن هذه القصيدة سبق نشرها في (المجلة المصرية) في عدد ١٥ من يونيه ١٩٠١ ، ثم أعادت جريدة اللواء نشرها ، ويبدو أن (شوقي) نظمها بمجرد صدور الغزو البريطاني عن عرابي .

وهكذا اتخذ (شوقي) موقف العداء من (عرابي) قبل وصوله من منفاه إلى أرض الوطن . مما يُم عن وجود خطة محكمة سابقة لاستقبال (عرابي) عند عودته ، والتنديد به .

أما القصيدة الثالثة فإنها معلقة طويلة نشرت في جريدة اللواء يوم ١٢ من يناير سنة ١٩٠٢ ، تحت عنوان (صوت العظام أوعرابي أمام قتل التل الكبير) ، ويقول شوقي في بدايتها :

عراي كيف أوفيك الملاما جمعت على ملامتك الأناما

فقف بالتل واستمع العظاما فإن لها كما لهمو كلاما

ويتحدث (شوقي) على طريقته حديث التاريخ ، فيروى انتصارات جيوش محمد علي وابنه إبراهيم . ويسخر من عرابي قائلا :

وبالأذكار لم نحى الليالي ولا بتنا على ضيم نياما

وليس هناك شك في أن الخديو (عباس حلمي) أعد خطة لمهاجمة (عرابي) ، مع (مصطفى كامل) ، واستخدم (شوقي) لتنفيذ خطته باعتباره شاعر الأمير ، ونجحت الخطة في تشويه سمعة (عرابي) . وقد ساعد على نجاحها المؤامرة البريطانية المدبرة ضد الزعيم المصري حيث نشرت على لسانه التصريحات التي ذكرتها لك ، والتي أشك في صحتها .

كانت صداقة (شوقي لمصطفى كامل) صداقة حميمة ، وقد وقف إلى جانبه في حادثة دنشواي ، وهي أعظم مواقف الزعيم الشاب الذي استطاع الإطاحة بالورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر ، والملك غير المتوج .

ألف (شوقى) دوراً غنائياً عن دنشواى ، كان يغنى فى السهرات الخاصة ،
وقد غناه أشهر مطربى عصره عبد الحى حلمى ، ويقول شوقى فى هذا الدور :

يا حامية دنشواى

نوحى للسيرجراى (١)

تحت الظلام

كى لا ينام

الشنق حامى

والضرب دايسر

فين المحامى

مافيش كلام

ومن أعظم الشوقيات ، تلك الشوقية التى يتحدث فيها عن دنشواى ،

فيقول :

يادنشواى على رباك سلام ذهب بأنس ربوعك الأيام

شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا هيات للشمل الشتيت نظام

نيرون لو أدركت عهد كرومر لعرفت كيف تنفذ الأحكام؟

نوحى حاتم دنشواى وروعى شعباً بوادى النيل ليس ينام

كما كانت قصيدته الشهيرة فى وداع اللود كرومر جزار دنشواى :

أيا مكم أم عهد إسماعيل أم أنت فرعون يسوس النيل

أم حاكم فى أرض مصر بأمره لاسائلاً أبداً ولا مستولاً؟

من أعنف القصائد السياسية التى قيلت فى العصر الماضى .

ولشوقى قصيدة أخرى فى وداع كرومر جعل عنوانها (وداع الشيبية المصرية

(١) السيرجراى كان وزير خارجية بريطانيا عندما وقعت حادثة دنشواى .

للورد كرومر) قال فيها :

ياراحلاً عنا وذكرك خالدٌ أبداً ليحيى بيننا الآلاما
سر . بالسلامة حاملاً زفراتنا واذكر مقامك بيننا الأعواما
واذكر حكاية دنشواى فإنها كم خلّفت بين الربوع يتامى
والحقيقة أن (شوقى) كتب قصائد ومقطوعات متعددة عن دنشواى ، ولكنها
لم تنشر فى الشوقيات ، لأنه كان ينشرها فى الصحف والمجلات تحت أسماء
مستعارة .

إن الجانب الحقى من حياة أمير الشعراء لم يبحث حتى الآن ، وخاصة فى شعره
السياسى ، فقد كان مركزه كشاعر للأمير يحول بينه وبين نشر اسمه أحياناً . ولكن
صداقته (لمصطفى كامل) كانت مستمرة لاتقطع . ثم حدث خصام بينه وبين
(محمد فريد) خليفة (مصطفى كامل) بسبب تغير سياسة القصر تجاه الحزب
الوطنى .

أما علاقة (شوقى بسعد زغلول) فقد بدأت منذ دنشواى ، وكان يعادى
آل زغلول جميعاً ، وخصوصاً (فتحى باشا زغلول) الذى كان عضواً فى المحكمة
المخصصة التى أصدرت أحكامها على شهداء دنشواى ، ثم فصل الإنجليز
(إسماعيل صبرى باشا) من وكالة وزارة الحقانية (العدل) وعينوا (أحمد فتحى
زغلول) ، ومنحوه رتبة الباشوية ، وفى السنة نفسها عين (سعد زغلول) وزيراً
للمعارف .

ويقول شوقى فى تهنئة وكيل وزارة الحقانية (فتحى زغلول باشا) :

إذا ما جمعتم أمركم وهمتمو
بتقديم شىء للوكيل ثمين

خذوا جبل مشنوق بغير خريرة
وسروال مجلود وقيد سجين
ولا تعرضوا شعري عليه فحسبه
من الشعر حكم خطه يمين
ولا تقرأوه في (شبرد) بل اقرءوا
على ملا من دنشواي حزين
ولكن (شوقى) بعد ذلك أصبح صديقاً (لسعد زغلول) ومن كبار المؤيدين
لثورة ١٩١٩ وقد قال في سعد :
يا شباب اقتدوا بشيخ المعالي فالمعالي تشبه وتحدى
قد تصدى لناثبات حقوق غير سهل لثلثين التصدى
وقد نشرت الأهرام والسياسة في صباح ١٤ من نوفمبر سنة ١٩٢٦ قصيدة تحت
عنوان :

(آية شوقى في ذكرى الجهاد الوطنى)

وكان يوم ١٣ من نوفمبر ١٩١٨ هو اليوم الذى ذهب فيه (سعد زغلول وعلى
شعراوى وعبد العزيز فهمى) إلى دار المعتمد البريطانى يطالبون باستقلال مصر،
وأصبح هذا اليوم يسمى (عيد الجهاد الوطنى)، ويقول شوقى فى مطلع
القصيدة :

خطونا فى الجهاد خطى فساخا
وهادنا ولم نلق السلاحا

ومن أبدع مقاله عن ثورة ١٩١٩ :

كان (بلال) نودى : قم فأذن فرج شباب مكة والبطاحا
كان الناس فى دين جديد على جنبااته استبقوا الصلاحا

وعندما عرض مشروع ملز على مصر عام ١٩٢٣ قامت معارضة شديدة ضده
لأنه لا يمنح الاستقلال الكامل للبلاد ، وقد كتب شوقي قصيدة ليس فيها من
السياسة شيء ، بل كلها غزل . ويقول تلميحاً إلى المشروع :
ينال باللين الفتى بعض ما يعجز بالشدة عن غصبه
فإن أنستم فليكن أنسكم في الصبر للدهر ، وفي عتبه
كما كتب قصيدة عن تصريح (٢٨ فبراير) الذي أعلن استقلال مصر ، وإلغاء
الحماية البريطانية .

ولكن صلة (شوقي بسعد زغلول) توثقت بعد خصام ، وزار (سعد) أمير
الشعراء في بيته كرمة ابن هاني ، وظل هذا الود قائماً حتى لقي (سعد) وجه ربه ،
ورثاه شوقي بالقصيدة التي لم يكتب مثلها في العربية :
شيعوا الشمس ومالوا بضحاها واثني الشرق عليها فبكاهها

١٥ - الدكتور محبوب ثابت

أليس من الظلم أن نتحدث عن الشخصيات في حياة شوقي ، ونغفل اسم الدكتور محبوب ثابت ؟

هو مسك الختام في هذه الأحاديث .

يقول الأستاذ فكري أباطة صديق محبوب ثابت :

كان المرحوم « محبوب ثابت » من عشاق حرف « القاف » المقلقة فكان ينادى صديقه الحميم « النقراشي باشا » باسم « نقرش » ، وكانت أحب المشروبات إليه القرفة و « القرقديه » يقصد الكركديه السوداني ، وكانت أحب الأطباق إليه طبق القلقاس وطبق القربيط - وجريا على هذه القاف - رشح نفسه لمجلس النواب في دائرة « بولاق » !

كان أنس المجالس الخاصة ، وكان يحرص كل أصدقائه على مداعبته ، ومن

بن هؤلاء الأصدقاء أمير الشعراء أحمد شوقي ، وقد كان يملك عربة حنطور يجواد
إحد هزيل نخيل أقله لحم ، وأكثره عظم فنظم « شوقي بك » قصيدة عصماء
اعب فيها (الدكتور محبوب) وسمى جواده النخيل الهزيل باسم (مكسي) نسبة
لى الجواد المشهور الذى فاز بجوائز بلغت نصف مليون جنيه فى سباقات الخيل
لعالمية واسمه « مكسونى »^(١) الذى أضرب عن الطعام ، ثم أصابه الهزال فقال فى
حصان محبوب بعض ما اختارناه من أبياتها :

| | | | | | |
|-------|--------|---------|-------|-------|--------|
| أدنيا | الخيل | بامكسي | كدنيا | الناس | غدارة |
| أحقا | أن | محبوباً | سلا | عنك | بفخارة |
| وباع | الأبلق | الحر | بأوفر | لاند | نعارة |
| عسى | الله | الذى | ساق | إلى | يوسف |
| يهيئ | لك | هواراً | كريمأ | وابن | هواره |

وكان محبوب ثابت وأحمد شوقي ، يجتمعان فى مجلس سعد زغلول الذى كان
شديد الإعجاب بشوقي كما ذكرت لك ، حتى إنه جعل حفلة تنصيبه أميراً للشعراء
تحت رئاسته الشرفية باعتباره زعيم الأمة ، وطرد (عباس محمود العقاد) من بيت
الأمة بسبب تهجمه على شوقي ، عند الاحتفال به ، ونشر مقالاً فى جريدة البلاغ
أثار ثائرة الزعيم سعد زغلول .

وعندما قام سعد زغلول برحلة فى النيل على ظهر الباخرة (محاسن) التى
اتجهت نحو بعض بلاد محافظة الجيزة كان من ضيوف سعد فى هذه الرحلة التى
بدأت يوم الأربعاء ٤ من مايو ١٩٢٦ أحمد شوقي بك أمير الشعراء ، وكان الدكتور
محبوب ثابت من ضيوف الرحلة بالطبع ، لأنه كان لا يفارق (سعد زغلول) فى

(١) ذكر شارح الشوقيات أن (مكسونى) بطل رياضى ، وهو خطأ ، والصواب ما يقوله
الأستاذ فكرى أباطة .

غدواته وروحاته ، وكان يسافر معه إلى (مسجد وصيف) عندما يذهب تسعد إلى هذه القرية للاستحمام .

وخلال هذه الرحلة النبيلة كان محمود فهمي النفراشي يستثير (محبوب ثابت) ضد شوقي على سبيل المداعبة ، فأذاع أن الدكتور (محبوب) يحسد (شوقي) أمير الشعراء على حفلات التكريم التي تقام له . ثم دارت مناقشات اشترك فيها سعد زغلول حول المقارنة بين شوقي وحافظ إبراهيم .

كانت المقارنة بين شوقي وحافظ تشغل الرأي العام في مصر ، وفي كل أقطار العرب ، ومازالت تشغلنا وستظل تشغل من يحيى بعدنا . وكان زكي مبارك على حق حين قال :

« كانت حياة حافظ وشوقي طاغية عاتية كتبت الخمول على مئات الشعراء » .

وقد ذهبت جهود شعراء العصر الحاضر أدراج الرياح ولم يعلم بوجودهم إلا الخواص لأن (حافظ وشوقي) كانا استبددا بالمكان ولم يتركا مجالاً لشباب أوكهول » .

حتى طه حسين عندما أراد أن يتحدث عن الأدب المصري الحديث لم يجد حديثاً غير (حافظ وشوقي) .

في شعر شوقي باب فريد وحيد هو باب المحجوبيات ، وهي المداعبات التي كان يكتبها أمير الشعراء لصديقه في بعض المناسبات .

كان محبوب ثابت رئيساً لنقابة العمال في بولاق ، ورشح نفسه للانتخابات في هذه الدائرة ، ولكنه سقط . فكتب شوقي تعزية للدكتور على سقوطه في الانتخابات قال فيها :

أعزيك أبا مكسي وإن لم تبش نفسى
لقد صرت لنا اليوم كما كنت لنا أمس

فلا عقلك في الحكم ولا روحك في الكرسي
ولا تمش على بولاق من عرس إلى عرس
وقد دقت لك العود ومدت بسط القرس
إذا ما بلغ المجلس أمثالك من النطس
فن نطلب للطب ومن نتدب للدرس؟
ومن يسمر في النادي ومحى مجلس الأنس؟
ومن للنفخة الكبرى من الرجل إلى الرأس؟

وبعد سقوط محبوب ثابت في الانتخابات في يونيو ١٩٢٤ ، وهو مرشح الوفد
الذى شاع عنه في مصر أنه لورشح حجباً لانتخبه الناس ظل الدكتور محبوب يحلم
بالوصول إلى منصب وزير الصحة . وأخذ محمود فهمى النقراشى من هذا الحلم
المحجوب مادة مستمرة للدعابة التى اشترك فيها سعد زغلول ، وكان محبوب ثابت
يشترط لدخوله الوزارة أن يسمح له بارتياق القهاوى والمحال العامة التى اعتاد
الجلوس فيها ، وأهمها قهوة الشيشة وبار اللواء . وعندما لمح له سعد زغلول بأن
تعيينه وزيراً للصحة سيوصله إلى رتبة الباشوية اعتذر عنها لأنه لا يملك ثمانين جنيهاً
تُمن بدلة التشريفه !

كان محبوب ثابت من الشخصيات النادرة في عصره ، ولم يصل إلى شيء مما
يشتهيه ، فلم يتزوج مع أن أصدقاءه خطبوا له من العرائس الوهيات عدداً
لا يحصى ، ولم يصل إلى منصب من المناصب مع صلاته القوية بأصحاب السلطة
والجاه وعلى رأسهم زعيم الأمة سعد زغلول .

وقبل أن أحدثك عن أحلام الدكتور محبوب التى صورها شوقي في قصيدة
بديعة من قصائده لابد من الحديث عن (مكسوفى) حصان محبوب ثابت الذى
أشيع في مصر أنه انتحر بعد سقوط صاحبه في الانتخابات .

٥٠ كتب شوقي ثلاث قصائد في مكسويني الذي كان يجر عربة الدكتور محبوب في أثناء ثورة ١٩١٩ ، واشتهر أمره في الكفاح الوطني . وقد عرف شوقي خبر انتحار مكسويني وهو في باريس (أغسطس ١٩٢٤) فأرسل إلى الدكتور محبوب هذه المراثية :

| | |
|---------------------|---------------------|
| يامكسى دنياك عارة | والموت كأس مدارة |
| والدهر يوماً ويوماً | والحال طورا وتارة |
| والعيش زهر ربيع | قصير عمر النضارة |
| إذا بلغن التراقى | فكل ربح خسارة |
| يامكسى قل لى: أحق | قد وسدوك الحجارة |
| وغيبوك طويلا | أشم مثل المنارة |
| عن أبيض الهند سد | حوا العرش والجرارة؟ |
| ألم تكن وطنيا | بكل معنى العبارة؟ |
| فكم شهدت قتالاً | وكم توردت غارة! |
| وكم لبست صليباً | على الجبين وشارة! |
| وكم نقلت جريحاً | فات بالاستشارة! |

وهى قصيدة طويلة لم تنشر في الشوقيات .

أما القصيدة الشهيرة في رثاء مكسى ، وهى التى ذكر بعض أبياتها الأستاذ فكرى أباطة ، فطلعها :

لكم فى الحظ سياره حديث الجار والحجارة

لأن الدكتور محبوب اشترى سيارة ماركة « أوفر لاند » بعد انتحار حصانه مكسويني ، وقد ظلت هذه السيارة معه إلى نهاية حياته ، وكان يركبها عندما اشتغل كبيراً لأطباء جامعة القاهرة .

وخلال ثورة ١٩١٩ كتب شوقي قصيدة في تحية (مكسويني) حصان الدكتور
محبوب ، قال فيها :

تفديك يامكسي الجياد الصلادم
وتفدي الأساة النطس من أنت خادم
كأنك إن حاربت فوقك عنتر
وتخت ابن سينا أنت حين تسالم
فيا نك شمس والجياد كواكب
وانك دينار وهنّ دراهم

وكان شوقي قد لقب الدكتور (محبوب) بلقب (ابن سينا) الشيخ الرئيس
وكبير الأطباء . وهو يخاطب مكسويني بعد انتحاره ، وركوب الدكتور للسيارة ،
قائلا :

لما جفاك ابن سينا وهام بالسيارة
تفر منه وتجرى كالنحلة الدواره
فلا إلى البوق تصغي ولا إلى الزماره
وقد تهتك فيها حتى أضاع وقاره

ويشير أمير الشعراء إلى أن الدكتور (محبوب) فقد وقاره بعد أن ركب السيارة
وهجر عربة الحنطور .

أما حكاية انتحار مكسويني فإن (شوقي) يشير إليها قائلاً :

أرسلت رأسك يهوى من ربوة لقراره

وقد ذكر الرواة أن (مكسويني) كانت له عربانة في قلعة الكباش بالقرب من
مسجد السيدة زينب ، وهي ربوة مرتفعة ، وذات يوم قفز الحصان من فوق هذه
الربوة ، وسقط جثة هامدة في شارع مراسينا .

ومن لطائف مداعبات شوقي لصديقه محبوب ثابت مقطوعة قالها أمير الشعراء
عندما عرف أن الدكتور (محبوب) - أيام ثورة ١٩١٩ - كان يكثر ألقي جنيه
لايمسها ، ولا يقرب منها لمعاونته على مصائب الزمان ، فقال له شوقي :

قل لابن سينا لا طيب اليوم إلا الدرهم
هو قبل بقرط وقبلك للجراحة مرهم
والناس مذ كانوا عليه دائرون وحوم
ويسحره تعلو الأسافل في العيون وتعظم
ياهل ترى الألفان وقف لايمس محرم ا

وفي عام ١٩٢٦ عندما كان الدكتور محبوب ثابت يحلم بتولى وزارة الصحة ،
ويرشح نفسه لها ، ويجادل (سعد زغلول) في ذلك الأمر كان شوقي يبتسم ساخراً .
لقد انتخب الدكتور محبوب ثابت عضواً في مجلس النواب ، وساعده العمال
على النجاح في الانتخابات بعد سقوطه الشنيع في بولاق ، وأصبح ترشيحه للوزارة
أمراً لا يحتاج إلى التعقيد . ومن أطرف المناقشات التي دارت حول هذا الموضوع ،
هذه المناقشة التي جرت على ظهر الباخرة محاسن خلال رحلة سعد زغلول النيلية إلى
بعض بلاد محافظة الجيزة ، وكان شوقي حاضراً في أثناء المناقشة ، ومستمعاً لها .
وكان الدكتور يعني نفسه دائماً بمنصب وزير الصحة ، وكان المنصب خالياً ،
وكثيراً ما أوحى أصدقاء الدكتور إليه أنه أجدر الوفدين بهذا المنصب ، فكانت
الدعابة تدور دائماً بينه وبينهم حول هذا الموضوع الحبيب إلى قلبه :
النقراشي : ألا حظ أن الكتور (محبوب) مهموم وآسف على ضياع
مركزه في الوزارة .

الدكتور محبوب : قد قطعنا الأمل يا نقراشي ، ويظهر أنكم لاتصدقونني !
الرئيس سعد : (متجاهلاً) في أي شيء تتكلمون ؟ أشركني في حديثكم

فلا علم لى بشىء !

النقراشى : المسألة يا « دولة الرئيس » أن أهل السياسة العليا كانوا يتفاوضون والدكتور محبوب أيام الأزمة الوزارية ليقبل منصب وزير الحرية .

محبوب : يقيناً يا مولاي الرئيس لم يتفق لى علم شىء ؛ لأننى كنت أيام الأزمة فى لجنة التوفيق فى الإسكندرية .

«والذين أنسوا بصداقة الدكتور محبوب بذكرون أن كلمة « يقينا » كانت من لوازمه فى كلامه ، وكذلك كلمة « حقيقة » وغيرها من الكلمات ذوات القاف . »
النقراشى : نعم ، ولكنك كنت على صلة تامة بأعوانك فى مصر ، ووصلك منهم تلفراف يقول : « إن الأخبار سارة واحضر بأول قطار » !

محبوب : (رافعا يديه إلى الرئيس) والله يا باشا كانت مؤامرة طبخها النقراشى وفخرى عبد النور .

فخرى بك : لا نقل مؤامرة ، إنى حدثتك بالحقيقة ولاعلم لى بشأن النقراشى معك .

الرئيس : ماذا حدثته به يا فخرى (بك) ؟

فخرى بك : فى أيام الأزمة ، قلت له : إن بعض أصحابك الذين يعرفون قدرك رشحك لوزارة الصحة ، وعلمت أن الدكتور (شاهين) باشا (وكيل الصحة يومئذ) قال : « لا أقبل (حافظ عفيفى) وزيراً ، لأن هواى ليس مع الدستوريين ، وإن كان لابد من الدكتور حسن كامل بك فإنى أقبل العمل

معه لأنه أستاذى وأكبر منى سنّاً . أما الدكتور محجوب فإني أقبله وزيراً للصحة بكل سرور ، لأننى أحبه وأثق بكفاءته ومقدرته الفنية . »

محجوب : (يمسح شفتيه بلسانه) يقيناً يا « باشا » قلت فى نفسى لا بأس من قبول وزارة الصحة ، أما الحرية فإذا أعمل فيها ؟
الرئيس : بالله يادكتور محجوب ، حدثنا عن ذات صدرك فى ذلك الحين ، وماذا كانت آمالك ؟

(أخرج الدكتور محجوب وتطلع إليه الجميع منتظرون)

محجوب : - والله يامولاي ترددت كثيراً ، لأننى قلت فى نفسى : الوزارة ستحرمنى الجلوس على قهوة الشيثة كعادتى .

النقراشى : ومن مناكفة بائعى الجرائد أيضاً !
محجوب : حقيقة يانقراش ، فإنى أنتظرهم كل ليلة لأشتري منهم الجرائد ، ثلاثاً أو أربعاً بقرش .

الرئيس : هل هذا هو المانع فقط ؟
محجوب : ويامولاي الرئيس ، تضطرنى الوزارة إلى السكنى فى بيت أنيق أو مايسمونه (فيلا) ، وأدفع أجرة عشرين جنياً شهرياً على الأقل .

الرئيس : ثم ماذا ؟
محجوب : آه ! والمالابس الرسمية ، فسأدعى فى كل ليلة إلى حفلة ساهرة ، وأخنى نفسى (بالقلع) واللبس ، وأنا رجل تعودت العيشة السهلة .

الرئيس : (مبتسماً) ليس فى هذه الأسباب ماينع ، لأن الذى

يعرض عليك الوزارة يعرف طبعاً أنك نائب العمال ، وأنتك مضطر لأن تكون دائماً على صلات بهم ، ونحن في عهد ديمقراطي ، فإذا يمنع من جلوسك وأنت وزير على (قهوة الشيشة) أو (صولت) ؟

: مع أنه اشترط تسمية وزارته باسم وزارة الصحة والعمال .

: يقيناً لأنني منهم وأنتخب على أكتافهم .

: ثم التكاليف الرسمية ليست سيئاً هاماً .

: يقيناً ياباشا ! لكنني ترددت كثيراً فيما بيني وبين نفسي .

: تعني لو أن الوزارة عرضت عليك على ألا تجلس في قهوة

الشيشة أفكنت ترفضها وتؤثر عليها الجلوس في القهوة ؟

: نعم يخيّل إلي ذلك ، لأن الوزارة ستعقلني طول النهار بين

أربعة حوايط ثم أقضي الليل في بيتي كذلك ، ليس في هذه

العيشة ما يرفه أويسلي ! نعم عندي «شيشتي» في البيت ،

ولكنها في القهوة لها كل معانيها .

: ولاتنس مناكفة بائعي الجرائد .

: آه منك يانقرش !

: ومتى تبتدئ هذه المناكفة يادكتور ؟

: (يبطئ في الجواب ويحمر وجهه) حوالى الساعة الحادية

عشرة مساء ، ولكن هذه يانقرش ليست شهوة هامة ، إذ

يمكنني وأنا وزير أن أزيدهم قرشاً أوقرشين .

: أظن أنه لايجب لك أن تمتنع عن قبول الوزارة لمثل هذه

الأسباب ، وأنا أنصح لك بقبولها حين تعرض عليك .

النقراشي

محجوب

الرئيس

محجوب

الرئيس

محجوب

النقراشي

محجوب

الرئيس

محجوب

الرئيس

(فضحك الجميع ، ولكن سرعان ما تكاثروا الضحك حتى لا يظن الدكتور أن الأمر هزل . .)

وعلى ظهر الباخرة لاحظ سعد زغلول ذات مرة أن الدكتور (محجوب) غير حاضر ، فأرسل يستدعيه ، ولما جاء فاجأه عبد الله بك أباطة قائلاً :
- دائماً تتأخر يا دكتور . . فماذا تفعل لو أصبحت وزيراً ؟
فقال الدكتور :

- لا ياسيدى ! الوزارة ترغمنى على حفظ المواعيد ، ومادام الرئيس يضع ثقته فى ويرشحنى لها فلا أقل من أحقق حسن ظنه ، حتى لا يقول أحد : إنه رشح خائباً !

فقال له سعد زغلول :
- ما زلت متعلقاً بالوزارة يا دكتور ؟

وقال النقراشى :

- ليكون باشا .

فقال محجوب :

- لا يانقرش . . لا أريد الباشوية . . وإلا فن أين أشتري بدلتها ، وثمنها يبلغ الثمانين جنيهاً .

استخلص شوقي هذا الحوار كله . وكتبه فى قصيدة من بدائعه (لم تنشر فى الشوقيات وهى من الشوقيات المجهولة) وجعل عنوانها :
(بين يدى الرئيس)

وقال فيها :

بيت الأمة اعتقل المطايا وفى دهليزه أطرق ملياً
وألقت سبال ذنك فيه وانشق تراب الساحة الكبرى ذكياً

وأد إلى (الجزيري) التحايا وسله ينل لك الإذن العليا
وحملق فيه حين يهز عطفاً تجدد تحت الغلالة سمهريا
وقل لم أدرا أنت أم (الجديلى) ألد تقمصاً وأحب زياً
يشير شوقى إلى لحية الدكتور محبوب ، فقد كان صاحب لحية كثة شهيرة ، أما
الجزيرى والجديلى فهما من سكرتارية سعد زغلول ، وكلاهما أزهرى كانا يرتديان
الجبة والقفطان ، ثم ارتديا الثياب الإفريقية بعد ذلك .

ويوجه محبوب ثابت حديثه إلى سعد زغلول قائلاً بشعر شوقى :

برئت إليك من خلطى وخبطى وما لفق الواشى علياً
وجئت إليك أشكو من هموم مؤرقة فهل تصفى إلياً؟
وهوم محبوب ثابت المضحكة هى :

لعلك قد علمت وفاة مكسى وكيف مضى وخلف لى علياً^(١)
(وأوفر لاند) أدركها كساح فليت كساحها فى ركبتيا
ونخطب الصيدلية كان أدهى وأنكر موقعاً فى مسمعيًا
رحلت وفى العيادة كل شىء وعدت فما وجدت هناك شىاً
ولى مرضى من العمال كثر إذا الأسطى مضى بعث الصيا
أحررها تذاكر ليس تحصى وما من ذاك شىء فى يدياً
واشتهرت حكايات الدكتور محبوب ثابت فى مصر ، وتناقلتها الصحف
والمجلات ، وأصبحت مما يتلذذ به الناس فى مجالسهم الخاصة . فقد كان يطلب
وظيفة رئيسية ، أو أن يعين مدير مستشفى ، حتى شاع وذاع أنه سيعين مديراً لمستشفى
المجاذيب ، وكان سليمان فوزى صاحب مجلة الكشكول ينشر هذه النوادر على
صفحات مجلته .

(١) مكسى هو حصان الدكتور ، وعلى هو سايس الحصان .

وأعجب شوقي بما يدور من فكاهات ، فكتب إحدى بدائعته التي نشرتها مجلة الكشكول في عدد الجمعة ٢٤ من سبتمبر ١٩٢٦ ، ويقول فيها :

يميناً بالطلاق وبالعناق من الدنيا المعقمة المذاق
وكل فقارة من ظهر مكسي بصحراء الإمام وعظم ساق
وتريته وكل الخير فيها . ونسبته الشريفة للبراق
وبالخطب الطوال وماحوته وإن لم يبق في الأذهان باق
وكسرى الشعران أنشدت شعراً ونطقى القاف واسعة النطاق
بوقت ضاعت الأخلاق فيه وأصبحت السلامة في النفاق
أيشتمنى سليمان بن فوزى (وبيى) في يدى ومعى (تباقي) (١)

ثم يقول شوقي على لسان محبوب ثابت الغاضب على سليمان فوزى :

أنا الطيار رجلٌ في دمشق إذا اشتدت ورجل في العراق
ألا (طُرُّ) على العيور (طُرُّ) وإن أبدى مجاملة الرفاق
بقارعة الطريق ينال منى ويوسعى عناقاً في الزقاق
ألم تر أنني أعرضت عنه وصار لغير طلعه اشتياق
فسبحان الفرق حظ قوم قناطيراً وأقوام أواق
وقوم يرتقون إلى المعالي وقوم مالم فيها مراق
أمور يضحك (السعداء) منها ويكيى البلشفي والاشتراقي (٢)

كان محبوب ثابت أنس المجالس ، وزينة المجتمعات في عصر شوقي ، كما كانت مقطوعات شوقي التي قالها فيه ، ورويت لها بعضها - من أمتع شعر المداعبات . هذا هو مسك الختام لهذه الصفحات التي أرجو أن تكون قد أمتعتك .

(١) يشير إلى الباب الذي كان يدخنها الدكتور وإلى الطباقي .

(٢) . يعني الاشتراكي .

فهرس

صفحة

٥

شوقى شاعراً

١٩

١ - الشيخ زكى سند

٢٨

٢ - شيخ العروبة أحمد زكى باشا

٤٢

٣ - الشيخ حسين المرصنى

٥٠

٤ - شيخ الشعراء . . إسماعيل باشا صبرى

٦١

٥ - أمير البيان شكيب أرسلان

٧٥

٦ - شاعر النيل حافظ إبراهيم

٨٨

٧ - الدكتور محمد حسين هيكل

١٠٠

٨ - الدكتور زكى مبارك

١١١

٩ - الدكتور محمد صبرى السوربوى

١١٩

١٠ - الدكتور إبراهيم ناجى

١٢٧

١١ - محمد عبد الوهاب

١٤٤

١٢ - المرأة

١٦٢

١٣ - موسيقىون ومطربون

١٧٢

١٤ - عراقى . . وسعد زغلول

١٩٠

١٥ - الدكتور محبوب ثابت

| | |
|----------------|--------------------------|
| رقم الإيداع | ١٩٧٩/٣٧٣٢ |
| الترقيم الدولي | ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٧٨٠ - ١ |

١/٧٩/٥٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

2.239.01

2.



785

sh

Bibliotheca Alexandrina



0453554